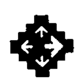

رواية
SCANNED BY
JAMAL HATMAL
نجم والي
مكان اسمه كُميْت
شرقيات

مكان اسمه كميت

نجم والي

الطبعة الأولى ١٩٩٧



دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
رقم بريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٣٩٠٢٩١٣ س. ت: ٢٦٩١٩٨

تصميم الغلاف: محيي الدين اللباد

رقم الإيداع ٨٢٢٩/ ١٩٩٦
الترقيم الدولى ISBN 977 - 283- 005- 1



مكان اسمه كُميْت

لم يستطع تجنب رؤية المدرسة في طريقه، منذ مغادرته السيارة عند محطة وقوف السيارات في الناحية، لم يفكر في طريق آخر. سارت أقدامه بحس المحترف الذي يعرف طريق الناحية جيداً. ليكن. ترى لماذا عليه تجنب الطريق؟ عندما أصبح قريباً منها، توقف قبالتها مولياً النهر ظهره، بدت شجرة الصفصاف عملاقة في ارتفاعها وسط ساحة المدرسة. كان يحرص ألا يلمحه أحد من سكان الناحية، لذا لم يتوقف طويلاً هناك. رفع حقيبته التي وضعها على الأرض، سار مبتعداً دون الالتفات يميناً ويساراً.

سار بسرعة عجيبة. وفي تلك اللحظة بالذات تأكد له، أنه لم يكن بالإمكان تجنب ذلك. ليكن ما يكون، انبعثت من حوله رائحة الياسمين التي وصلت أنفه ممتزجة برائحة النهر، ومع حركة هواء حركت قميصه، حاملة معها روائح أخرى هي خليط من الرازقي والجوري. لقد صاحبته تلك الروائح التي يبعثها ليل كميت، حتى بيت جدته الذي قادته قدماه إليه دون عناء، ودخله مثلما يدخله كل مرة، عليه دفع الباب بخفة، فقد اعتادت جدته عدم غلقه بالمزلاج، مكتفية بوضع حجر صغير خلفه. لم يجد هذه المرة حتى ذلك الحجر.

استيقظت جدته على صوت أقدامه، كأنها تنتظره، وهي التي كانت عادة تنام نوماً عميقاً في مثل هذه الساعة. ليدع جعل الحقيبة تستقر فوق الأرض بهدوء مبالغ فيه، فيما اتجه إلى السرير القريب الذي استقر عند الزاوية الداخلية لباحة الحوش. جلس على حافته. سمع صوت جدته من مكانه عند التخت الذي استقر عند الزاوية الموازية للسرير:

– صالح؟

فأجابها بصوت امتزجت به ضحكة خفيفة:

– طبعاً....

وعندما شعر أنها تهم بالنهوض، صاح بها:

- إذا قمت أزعل.

لم تنهض. أردفت من مكانها:

- تصورتك تبقى في بغداد!

أجابها:

- كان نفس تصوري.

ثم أعقب:

- نامي جدة.

لقد وافقت على مضض، لأنها كانت بالفعل تود أن تعرف كل شيء.

خلع صالح ملابسه، أخرج دشداشة من حقيبته، ألقاها فوقه، وسحب إزاراً أزرق انطرح عند أقدامه، عند طرف السرير. تمدد باسترخاء، فيما طافت نظراته بين التماعات النجوم المتدلية فوق سماء كميت. فكر: هي الأخرى تسأل لماذا رجعت؟ ليكن ما يكون.



لقد كان زمناً صعباً، ذلك الذي حل فيه صالح بالقرية. كانت العطلة الربيعية قد انتهت للتو، عندما استلم أمر نقله إلى كميت. لم يجد آنذاك صعوبة في العثور على الثانوية الوحيدة في الناحية والتي لا يستطيع الداخل إلى كميت من جهة محطة السيارات القادمة والمغادرة من وإلى المدن الأخرى، تجنب المرور بها. فوحدها شجرة الصفصاف التي انتصبت وسط الساحة، كانت لافتة للنظر لارتفاعها الضخم.

في تلك الظهيرة لم يكن بإمكان المدرس صالح تجنب الصمت الذي بثه دخوله الصف. وقف مولياً ظهره السبورة منكفئاً على معاينة وجوه الطلاب والطالبات الذين واظبوا على النظر إليه بفضول، متهامسين فيما بينهم.

- أنا مدرسكم الجديد صالح.

ألقى جملته وكأنه قد رمى حجراً في بئر عميقة، وحده يسمع صدى ما قاله، إذ غمر الصف صمت غير عادي. حدق بهم مرة أخرى وارتكن هو الآخر إلى صمته. وضع يديه في جيوب معطفه الكاكي الذي تهدل بعض الشيء فوق كتفيه اللتين تداخلتا ككتفي رجل هرم. استمر على صمته وكأنه اعتاد، بل تمنى هذا الهدوء، فيما راح يتطلع إلى الوجوه وكأنه يبحث عن مدخل آخر لتكملة جملته التي يجدها مجرد هراء، لاغير، إذا ما بقيت على حالها دون إضافات أخرى. وإلا ماذا تعني هذه الـ «أنا مدرسكم الجديد صالح»؟ ربما علق أحدهم في داخله بحق «طز». ما الذي يثقل لسانه ويجعله ينكمش في مكانه. هل هي الرغبة بأن يستريح تستحوذ عليه مرة أخرى؟ ألم يطلب هو نقله إلى كميت؟ ما الذي يجعله، يشعر الآن بوهن يسري من قمة الرأس حتى كعبي رجليه. كم يتمنى إغلاق عينيه. لم يكن متعباً حقاً، إنما ذكريات يوم مليل مازالت تتردد في ذهنه، تنقر على جدران جمجمته، مثلما تفعل تلك الذبابات، التي ضلت طريقها، وراحت ترتطم

بزجاج النافذة، تدق بهدوء، يشبه صمت وقع أقدامه التي يسمع صوتها وحده.

تحرك ببطء، يجر ثقلاً، وفي النفس يسري حديث عتيق «ما الذي قد صنعت بنفسك» يرتكن إلى جملة قرأها في إحدى القصائد، وظلت تصاحبه في كل أزماته. كان مغلقاً بفكرة واحدة: كميت، هي محطته الجديدة. هنا سيبدأ من جديد، في هذا المكان بالذات، الذي من الصعب العثور عليه في إحدى الخرائط، سيلغي «صالح سلطان» القديم. آخ لو بالإمكان تغيير الأسماء لذهب على الفور إلى دائرة النفوس وقال لكاتب النفوس:

- أخي.تعبت من نفسي، بودي تغيير اسمي.

يقيناً سيظنه مجنوناً. وماذا سيقول له لو سأله عن الاسم الجديد. أي اسم سيختار؟ كيف يعرف أن الاسم الجديد بلا ماض. وبقدر ما يمتلكه مشروعه، يدب اليأس فيرتد على نفسه، ويكتفي بهذا الـ«صالح» الذي يلبس ملابسه الآن، والذي يقف هنا في مدرسة، في ناحية كميت، في مدينة العمارة، في بلاد اسمها العراق، في قارة آسيا، فوق كرة أرضية قابلة للتدحرج، ألا يتدحرج هو الآخر من مكان إلى آخر؟ إنه يقف فوق كرة أرضية متدحرجة، في آسيا، في بلاد اسمها العراق، في مدرسة، في صف في ملابسه هو التي يشعر بها غريبة عليه. كم أخافه فشل مشروعه هذه المرة، لأنه يدري أن الدائرة بدأت تضيق، وليس هناك طريق إلى الداخل، نحو الخارج، أو إلى ما حول. لقد صمم أن يجمع قواه من أجل طرد كل إمكانية للشك تعاوده. لكن، في تلك اللحظة التى وقف بها بين طلابه، راوده الشك مرة أخرى، ووجد نفسه عند السؤال الأبدي ذاته، هل هذا ما بحثت عنه؟ مرة أخرى يخيفه السؤال، فيضطرب. فيقول لنفسه: لم يمر

عليه في هذا المكان أكثر من يوم واحد، لينتظر. أو لماذا لا ينسى مثلاً حكاية وجود كرة أرضية.

لبرهة يقف في مكانه. يحدق في الطلاب مرة أخرى. لم ينظر إلى شخص معين، إنما دفع بصره بحرية، متفحصاً صفوفهم الثلاثة، يستجديهم الكلام. لقد ألقى بحجره، وعليهم أن يفعلوا مثله. من يبدأ، لينقذه من ذكريات مجهدة. لكن وجوههم لا تتحرك، وكأنها مصرة على استفزاز الكلام فيه. كانوا صامتين، يتابعون خطواته بتوجس. هم الآخرون يتوسلون الكلام منه. يقيناً لم يقتنعوا بهذه الـ «أنا مدرسكم الجديد صالح». يقيناً بدا لهم مختلفاً عما ألفوه من المدرسين الآخرين. بغض النظر عن حركته البطيئة غير المتوترة، والتي لم تحو عنف وصلابة المدرسين المألوفين أو على الأقل هذا ما يظهرونه في أيامهم الأولى عندما يبدأون في مدرسة جديدة. بغض النظر عن ذلك، بدا لهم غريباً في معطفه المهترئ قليلاً عند الذراعين، إضافة إلى لحيته التي لم يحلقها كما يبدو منذ أيام. لم يكن أنيقاً بأناقة المدرسين المعروفة، بينما أضافت عيناه السوداوان المتعبتان هرماً يفوق سنّ الثلاثين. بل حتى ابتسامته التي كان ينتزعها من فمه، بدت منهكة ومفتعلة، لم تثر سوى فضول الطالبات.

فجأة انتبه صالح إلى تطلعهم إليه، فارتبك. أخرج يديه من معطفه، مسد بإحداها لحيته، فيما بدا وكأنه يريد حسم موقف مهم. تنحنح، لينتزع بتعب جملة، وبصوت ليس فيه جرس:

– كما سمعتم أنا مدرسكم الجديد صالح.

بعدها صمت، ولما صمم ألا يطيل صمته هذه المرة، تحرك من مكانه عاقداً يديه حول صدره ليهتف بحماس، كأنه اكتشف طاقة منسية:

- اسمعوا، إن ما يهمني هو بناء علاقة حميمة بيننا، لنقل: لنصبح أصدقاء. لا أريد أن تتعاملوا معي بخوف، على أساس العلاقة بين مدرس وطلابه. يهمني أن نتحاور.

انتهى من جملته. غمره فرح مفاجئ كمن أمسك خيطاً افتقده منذ زمن. من أين تأتي هذه الحماسة، دفعة واحدة؟ تستحوذ عليه الرغبة في الاستمرار، بإلقاء كل ما في حوزته من أحجار.

- فعلاً، أصدقاء. ثقوا ليس هناك أحسن من أن نكون أصدقاء. لنبدأ بالتعرف على بعضنا البعض.

هل ألقى جمله بكامل وعيه؟ فما يعرفه، أنه لم يصغ إلى أسمائهم جميعاً، إنما اتجه إلى النافذة. أسند كوعه إليها. وقف هناك، وكأنه يعرف المكان منذ زمن. مرة أخرى يفتر حماسه. ربما سمع الاسمين الأولين فقط. حاول ألا يمنحهم الانطباع بعدم إصغائه، رغم أنه كان مقتنعاً، أن حركاته للبعض بدت مصطنعة، وهذا ما لاحظته بالفعل الطالبة ماجدة عبد الحميد، إذ قبل أن تقف لتلقي باسمها، لمحت عينيه الشاردتين واللتين عكستا أشعة شمس تلك الظهيرة الربيعية، فقد أثارت فيها أسى شفيفاً، ربما لأنها تذكرت في تلك اللحظة نفس الحزن الذي رأته ذات مرة في عيني أخيها رعد الذي انقطعت أخباره عنهم منذ أكثر من سنة. صحيح أن صالح يكبره بعشر سنوات على الأقل، إلا أن هناك ماهو مشترك بين الاثنين: وجهه المستطيل بتجاعيده الغائرة، أم تلك النظرة المنكسرة؟ لاتدري، بل لاتود النبش في مخها، يكفيها أنه أدار رأسها، وجعل جسدها يرتعش تحت جلدها.

تحرك صالح من مكانه عندما شعر بصمت غير عادي، فرآها واقفة أمامه، لم تبعد النظرة عنه. أبعدت خصلة انزلقت فوق جبهتها. وبصوت مرتفع، وكأنها عزمت على استلاله من نومه، هتفت:

– اسمي ماجدة عبد الحميد. ثم جلست في مكانها. كانت هي الأخيرة. خيم الصمت على الصف. مرة أخرى غرق صالح أيضاً في صمته. ما الذي جرى له، حتى يشعر بدفء مفاجئ؟ هل هي أشعة الشمس؟ نخلع معطفه بحركة لا إرادية، ويلقي به عند النافذة. راح يتفحص ماجدة بحذر. لقد أثارت انتباهه لاختلافها عن الطالبات الست الأخريات في الصف المكون من عشرين طالباً وطالبة. هي الوحيدة التي لم تلبس عباءة. لم تجلس كما جلست الأخريات لافات العباءة حول سيقانهن خوفاً من دخول جسم غريب أو أشعة ماجنة إلى ما بين الساقين. كلا. لقد جلست في مكانها باستقامة رافعة وجهها الصبياني، فيما انحسرت التنورة عند ساقيها قليلاً، وظهر جزء من فخذيها المكتنزين. لبرهة ظل يحدق بها، استحوذ عليه خوف سري لا يعرف كنهه، إذ ضج فجأة رأسه بحديث مدير المدرسة قبل الدخول إلى الصف:

– أستاذ صالح ملفك أمامي، وفيه مكتوب كل شيء عنك. كل صغيرة وكبيرة. لا أريد إعادته أمام حضرتك. أنت تعرف ماضيك جيداً، ولكن أرجو الالتزام بما أقوله في هذه المدرسة. أنت تعرف أن الناحية صغيرة، كل شيء ينتشر فيها بسرعة البرق. افهمني أرجوك، لا إحراجات. لا دروس في السياسة. التاريخ. لا تنس أنك وقعت تعهداً.

لم يندهش لحديث مدير المدرسة. كان يعرف أنهم سيرسلون ملفه إلى المدرسة. لكنه رغم ذلك لم يستطع منع الامتعاض الذي أثارته فيه كلمة «تعهد». الآن يعذبه الأمر. «كلمات، كلمات» فكر بعذاب هاملت من

الكلمات، لمعرفة أنها ستصبح حقائق، إذا ما خرجت من مخبئها. «تعهد» ليست كلمة فقط، إن التهرب منها يؤدي إلى الإعدام. أية كلمة شريرة. هل بإمكانه الاقتراح على المجمع العلمي حذفها من القاموس؟ لكنه وقع التعهد وكفى. ولا يجديه استبدال الأسماء شيئاً. ما الذي جعله يوقع تعهدهم بسهولة؟ كيف سمح لنفسه بتوقيع تلك الورقة؟ لم يوقع الورقة فقط، إنما قد أقنع نفسه بالفعل بعدم ممارسة السياسة تباعاً، كيف؟ هل يكف عن وظيفته الحيوانية في المجتمع؟ كيف سمحت نفسه له بالاقتناع وبهذه السهولة؟ فهو الذي طلب من مدير تربية بغداد نقله إلى كميت، عندما أرسل المدير في طلبه، مخيراً له بين نقله إلى موظف في إسالة الماء أو إلى منطقة نائية. في تلك اللحظة قفزت «كميت» إلى ذهنه وكأنه تهيأ إلى هذا الجواب منذ زمن طويل. ما الذي كان يشده إلى هذا المكان؟ هل بسبب جدته التي ولدت ومازالت تسكن هنا، والتي لم يستطع أحد من أبنائها أو بناتها إقناعها بالذهاب معه؟ أو لأنه قرر أن يستريح بعيداً عن بغداد؟ يعرف كم تثير هذه الأسئلة الخوف فيه، إذ هو لم يشأ أن يبدأ في هذه المدينة الصغيرة فقط، إنما أن يكف عن إلقاء الأسئلة. كان متعباً، وكان بوده أن يستريح، أن يستقر كحجر، أن يكون جسماً محايداً، أن ينتهي ولمرة واحدة من هذا الـ«صالح» الذي لم يعد صالحاً منذ توقيعه للتعهد، أو منذ أن وطئت أقدامه أرض كميت، والذي سمح لنفسه بالاعتذار لمدير المدرسة عن مظهره غير اللائق كمدرس:

– لاضير. مجرد صدفة. العفو. لم يتسن لي حلاقة لحيتي واستبدال ملابسي بسبب السفر. سيتغير الوضع في الأيام القادمة.

أليس هذا تكتيكاً أيضاً؟ ألم تُسمّ الجبهة تكتيكاً. طز. تحرك صالح من مكانه ليصبح قريباً من ماجدة. سرت في جسده رعشة، مسته مساً خفيفاً كتيار كهربائي. خاف من نظراتها، فقرر الاتجاه إلى النافذة مرة أخرى. تناول

معطفه، لبسه، ثم انفتح فمه عن ابتسامة عريضة:

- اسمك ماجدة؟

فأجابته دون إخفاء ابتسامة مرحة:

- أعتقد نعم.

ومن أجل الحديث سألها:

- ماالذي يعجبك في الأدب العربي، أو الأدب العالمي؟

مثلما فعلت عند إلقاء اسمها رفعت وجهها بثقة. وأزاحت بجرأة الخصلة التي تدلت فوق جبينها مرة أخرى:

- في الأدب العربي يعجبني جبران خليل جبران. قصائد شاكر السياب. أما في الأدب العالمي فللأسف لم أقرأ غير الكونت دي مونت كريستو ومرتفعات وذيرينغ.

لم يعلق على جملتها، إنما حول رأسه عنها على مضض. كان يرغب أن يتحدث معها أكثر، لكنه كان يخشى إثارة فضول الآخرين. ما الذي ستفزه فيه هذه الفتاة؟ هل لأنها «ناحلة، هشة، مشتهاة»؟ أين قرأ هذه القصيدة، لم يعد يتذكر حتى كاتبها. هل يحمل هذه الصورة في مخه منذ زمن طويل؟ ألم تكن حامدة أيضاً «ناحلة، هشة مشتهاة»؟ لماذا تغيرت؟ لماذا تغير هو؟ مرة أخرى يضطرب بالأسئلة. يحاول الإفلات من مصيدة ذاته، فيلقى بالسؤال على الطلاب.

من زاوية الصف رأى أحدهم يرفع إصبعه، ويستأذنه بالنهوض. أشار له صالح بنعم.

- إن أكثر ما يثيرني في الأدب العالمي هو دوستويفسكي.

ابتسم صالح في الأول، ثم عاين الشاب. لقد أثار فيه الفضول هو الآخر، فقد اختلف في هندامه عن باقي الطلاب. بدا وجهه شاحباً بعض

الشيء، فيما ارتسم هدب أشقر فوق شفتيه. لقد جعلته خصلات شعره الأشقر المتهدلة وعيناه الخضراوان الناعستان يبدو وكأنه قد استيقظ للتو من نومه. لم يبد عليه الاضطراب، بل حدق صالح بتعاطف شديد، ألقى جملته بهدوء، بل برقة، فيما بدت عيناه زائغتين، تنتظر جواباً من صالح.

ظل صالح مشدوداً إلى مكانه. في الحقيقة كان يرغب أن يسأله، لماذا دوستويفسكي؟ لكنه عدل، واحتفظ بالسؤال لـنفسه. لماذا دوستويفسكي بالذات، بعد أن قرر أن يعيش بدون تناقضات؟ مازال يتذكر، كيف أنه بعد قراءته للجريمة والعقاب، عندما كان طالباً في كلية الآداب، فكر أن يقتل أم حسين، صاحبة الدار التي أجر غرفة عندها في الحيدر خانة. كم من ليلة جلس يخطط على هدى راسكولينيكوف. كان مفلساً لحد اللعنة، وعندما قرر فعل ذلك في النهاية، كتب رسالة إلى صديقته آنذاك سناء، لدهشته عرف بعدها، أنه لم يخاطبها في الرسالة بسناء، إنما بسونيا. في تلك الليلة شرب أيضاً من العرق ما يكفي، وفي الصباح وجد نفسه قد نام عند عتبة الدار، الرسالة ماتزال في جيبه، فيما كانت رجل أم حسين ترفسه لتوقظه قبل أن يوقظه صباح الباعة ولهيب الشمس الحارق. ألم يحفظ شخوص دوستويفسكي؟ هل يعدهم؟ كلا. وكمن يدفع موجة ضخمة، رفع رأسه مستجمعاً قواه، ليقول:

– لنترك قضية الأدب جانباً لقد كان مجرد واسطة للتعارف بيننا.

صمت، كأنه يتهيأ لإلقاء أمر لم يكن منه واثقاً:

– سنبدأ منذ الآن في الدخول إلى التاريخ. أنتم تعرفون كم هي معقدة مادة التاريخ، بغض النظر عن أن الكتاب الذي بين أيديكم جامد بعض الشيء، سنحاول في الدروس القادمة تلخيص النقاط الأساسية.

فجأة توقف عن الكلام. انتابه الحذر من الإسهاب، قلب الأمر في ذهنه، فيما إذا كان من المناسب ذكر كلمة معقدة بما يخص التاريخ، وإنها لاتجلب غضب مدير المدرسة، فلا بد أن له جواسيسه بين الطلاب. أردف موضحاً حديثه:

– أقصد بمعقدة، أن هناك تواريخ لاداعي لذكرها. المهم هو التركيز على مضمون هذه الحوادث وتحليلها، آخذين بعين الاعتبار أدوار بعض الأشخاص في تحديد هذا المسار أو ذاك.

مرة أخرى يتوقف. لقد استفزه صمتهم. إنه على يقين أن كل محاولة جديدة منه، ستنتهي به إلى مطب جديد. همس مع نفسه «أية لعنة هو التاريخ؟» ما الذي جعله يدرس التاريخ، لماذا؟ ألا يعرف أن كل ما درسه في الجامعة، وكل ما يقوله إلى طلابه كذب، بل ترهات لاغير؟ إنه تاريخهم هم الذي لقنوه إياه ويجبرونه كل يوم على ترديده. «تاريخ» أي سخرية تثير هذه الكلمة. ليس هناك تعريف للكلمة أحسن من ترجمتها للإنكليزية His Story قصته، حكايته، وتاريخه هو، أين يبدأ، أين ينتهي؟ كل مرة يشعر أنه مجرد أداة للتاريخ يصنع منها أولئك الذين أجبروه على توقيع التعهد، ما يشاؤون. «اللعنة على التاريخ» يهتف في داخله. ويتجه إلى النافذة . مرة أخرى يتطلع من مكانه إلى شجرة الصفصاف العالية، ثم يدفع بصره إلى سطوح البيوت، فيرى دخان التنانير الذى بدأ في الانتشار، فيعرف أنها الساعة الأخيرة لذلك العصر، حيث ستبدأ النساء بتهيئة رغيف المساء. لم يخلع عينيه من التسمر هناك سوى صوت الجرس الذي أعلن عن انتهاء الدرس.

لم يتطلع إلى ماجدة ذلك اليوم فقط، إنما مع كل درس جديد كان يحس أن ثمة ما يشده إلى هذه الفتاة، ليزداد مع الزمن فضوله بالتعرف عليها،

في نفس الوقت كان يزداد اضطرابه ويثقل كلما التقت عيناه بعينيها. كان يشعر برعشة تسري من تحت العمود الفقري، كمن لُدغ للتو، أو أن يداً امتدت لتمسده هناك. لم ينفعه إشاحة وجهه عنها، أو اتجاهه إلى النافذة أو محاورته لأحد الطلاب. يدري أنها تحدق به أيضاً. من الصعب طرد صورتها التي رسخت في ذهنه. كلا يبدو أنه لم يشأ إبعاد صورتها الأولى عندما رآها في الصف، بتنورتها الكاوبوي الضيقة عند الخصر والتي أظهرت مؤخرتها المندفعة باكتنازها، بقميصها الشفاف الذي لم يحجب رؤية السوتيان الأسود خلفه، حيث استقر نهداها الصغيران، قُبرّتان تتمايلان بتحركهما.

هكذا، ببساطة، أحاطته ماجدة كالهواء. لقد امتلكته، وحتى بعد انتهاء الدرس وذهابه إلى البيت، أو أثناء تجواله في الناحية. لقد لمحها أكثر من مرة في سوق المدنية أو متجولة على الكورنيش. كان يلاحظ تفحصها له باستمرار، بالرغم من حرصها ألا تطلق ضحكة تفضحها فقد كانت تكتفي بالنظر إليه خفية، مقلصة أساريرها وكأنها تريد الاحتفاظ به هناك، عند أسارير وجهها.

ليكن ما يكون. كان شغله أمراً واحد، كيف يحملها على الحديث معه خارج موضوع التاريخ. ثمة ما أثاره فيها، ولا يريد أن يسأل نفسه لماذا وكيف؟ إنما أسلم نفسه لما حدث وكفى. لم يرد التخطيط لما سيحدث تماماً. بل لم يتخيل أي متاعب سيلاقيها. لقد أخذ الأمر دون نية منه بتعقيده. مرات قليلة تساءل مع نفسه، عما يريده منها أو على الأقل كيف سيتصور علاقته معها؟ كم تمنى أن تجري الأشياء مثلما تجري مشاعره، سلسة، حرة. لقد حاول من جانبه أن يمنحها هذا الانطباع أيضاً، ففي الأيام الأولى، عندما يراها في المدينة صدفة، يظهر لها ابتسامة شفيفة، أو يهز لها

رأسه. كانت هي تتجاوزه بصداقة. رافعة مثل كل مرة خصلة الشعر المتدلية فوق جبينها بغنج، وأياً كانت حركتها، فإنها لم تثر عنده شعوراً مضاداً، إذ على العكس، ظل هو مواظباً على ابتسامته لها كلما التقاها في المدينة. لم ييأس. بل لم يخطر على باله أن يستسلم. ومع الأيام اختلط الأمر في ذهنه، إذ لم يعرف بالضبط، فيما إذا كان إصراره جزءاً من عناد قديم، أم هو شعور عميق غير عادي. وعندما يبدأ الشك يغزوه، يشعر بذعر مباغت، وكمحارب محاصر يبدأ بالتفكير بتحسين وضعه للخروج من حصاره، يحاول جمع قواه كمريض لم يصدق أنه مريض، أو كنائم فاته موعد مهم فيستيقظ مذعوراً، لذا قرر الانتهاء من عذابه بطريقة ما. ليكن ما يكون.

كانت جدة صالح تخيط في تلك الأيام العباءات النسائية والرجالية. تلك كانت مهنتها منذ سنين، والتي منحتها شهرة، ليس في الناحية فقط، إنما في الأطراف المجاورة. ولأن صالح يعرف عدم وجود خياط آخر للعباءات في الناحية، فقد فكر في بادئ الأمر، أن ماجدة حتماً ستأتي ذات يوم لخياطة عباءة أمها مثلاً. لقد ظل ينتظر مرورها ثلاثة أسابيع وأربعة أيام. ولكن عبثاً حينها فكر في البحث عن وسيلة أخرى. لقد فكر بتلك الوسيلة بالذات، عندما كان يعيد قراءته لكتاب «الليالي البيضاء» لدوستويفسكي، أمر واظب عليه في الفترة الأخيرة، وكأنه كان يشك بكل قراءاته الأولى. بالضبط في اليوم الأول من الأسبوع الرابع، وبعد قضائه ظهيرة رتيبة. كان ناعساً بعض الشيء وعندما قذف الكتاب إلى جانبه، طالعه عنوانه حينها ابتسم وقرر أن يعيرها الكتاب في اليوم الثاني، قبل إتمام قراءته، وقد ظلت له أربع وأربعون صفحة.

بالفعل حمل الكتاب في اليوم التالي، وانتظر لحين دقة الجرس. لم يخرج كالعادة قبل طلابه، إنما انتظر خروجهم جميعاً. كانت الفتيات تتأخر

عادة في مغادرة الصف، فيما كانت ماجدة الأخيرة دائماً. لذا كان من الملائم الخروج قبلها بثوان وانتظارها عند باب الصف. هذا ما فعله. إذ عندما مرت به، قالت له «مع السلامة»، وقبل أن تبتعد هتف بها، وهو يخرج كتاباً من جيب معطفه باضطراب واضح:

- حاولي أن تقرئي هذا الكتاب.

وقفت مندهشة بعض الشيء امتدت يدها لتأخذ الكتاب:

- بالتأكيد لاعلاقة للكتاب بالتاريخ!

ثم لتغادر المكان بسرعة، ربما حريصة ألا يراهما أحد.

وبعد أن رآها تضع الكتاب في حقيبتها وتختفي في ممر المدرسة، غادر مكانه، ليصل إلى باب إدارة المدرسة، ليجد المدير في استقباله، والذي ابتسم بود مصطنع:

- آمل أن يكون كتاباً مفيداً...

فأجاب صالح مندهشاً:

- بالفعل..

فيما شعر بيد المدير تستقر فوق كتفه، ويقول له:

- اليوم أنت مدعو في نادي الموظفين.

وقبل أن يسأله عن المناسبة وصاحب الدعوة، أكمل المدير:

- السيد عصام ماهود مسؤول الناحية يريد التعرف عليك، كذلك مدير الناحية وشخصيات أخرى.

أنزل المدير يده من كتف صالح وأضاف:

- نلتقي الليلة هناك.

اتجه إلى غرفته، وعند وصوله الباب، هتف من مكانه،

- أرجوك أستاذ صالح، لحيتك يا أخي هذه المرة طالت أكثر مما يجب، اذهب إلى الحلاق قاسم، يقصها لك أحسن قصة.

ثم أكمل جملته ضاحكاً:

- لولا ملفك لحسبناكم من الإخوان.

ودون أن يكمل المدير شرحه، أدرك صالح ما يعنيه، فأشار له بالموافقة.

لم يحتج سؤاله عن مكان النادي، فهو معروف مثل السوق الرئيسي، والسينما، بل مثل بيت الدعارة الذي افتتحته حسيبة حديثاً عند أطراف الناحية، حيث كانت مضارب الغجر. إذ كل مساء، وعندما تبدأ أشعة الشمس بإلقاء أشعتها عند الطرف الآخر من العالم،. وحين تعكس الشوارع ومياه النهر نلألؤاً مشوباً بالحمرة، يبدأ غالبية رجال الناحية بالزحف إلى مقاهي البلدة أو إلى نادي الموظفين، أما في الصيف فيصطحب بعضهم عوائلهم إلى السينما الصيفية التي كانت تلك الأيام مغلقة بسبب المشكلة المتعلقة بملكيتها ورغبة عصام ماهود بالاستحواذ عليها.

خرج صالح من المدرسة، وقرر التوجه إلى صالون الحلاقة القديم القريب من المدرسة «صالون حلاقة قاسم».

برزت القطعة الخشبية عند واجهة المحل. قاسم رجل في الستين، وهو أول من افتتح صالون حلاقة في الناحية، بعد أن تعب من مطاردة الشرطة ومراقبي البلدية له، إذ اعتاد قبل سنين الحلاقة في الشارع، يضع صندوق عدته إما على دكة قريبة من النهر أو على كنبة إحدى المقاهي، يجلس زبائنه في الهواء الطلق، معظمهم من الشيوخ وإن لم يخل قسم منهم من

الشباب. وكثيراً ما كان يضطر لتركهم قبل إكمال حلاقته لهم، إذا ما داهمته الشرطة أو جاءه رجال البلدية، بدأ ذلك، مع بداية التحدث عن الشروط الصحية، التي يجب توفرها في أدوات الحلاقة، وعن ضرورة وجود محل للحلاقة. وأخيراً وتحت ضغط زوجته التي ادخرت بعض المال من مصروف التسوق اليومي،، قرر قاسم تأجير هذا الدكان الصغير، عند مدخل السوق، في الطريق المؤدي إلى المدرسة، والذي لايملك أثاثاً كثيراً. لقد اشترى كرسياً عادياً غير متحرك لجلوس زبائنه، فيما وضع مرآة متوسطة الحجم، أمامها استقرت طاولة صغيرة وضع عليها أدوات الحلاقة، عدته القديمة ذاتها، بينما لم ينس طبعاً قنينة الكولونيا الرخيصة، والتي تصل رائحتها الشارع أحيانا، أما القنفة، حيث يجلس زبائنه وأصدقاؤه المتقاعدون فلم يشترها. إنما جلبها من داره.

لم يمارس قاسم قديماً الحلاقة إنما كان يختن الأطفال أيضاً. وهو يفتخر، إنه وليس غيره، من ختن عصام ماهود، يكرر هذه المناسبة دائماً أمام أصدقائه المتقاعدين، الذين يكتظ المحل بهم والذي أصبح المكان المناسب لنقاشاتهم السياسية، أمر حمل قاسم أن يضع قطعة من الكارتون، علقها وقد كتب عليها بخط رديء «الحديث بالسياسة ممنوع» والتي تلفت نظر كل زبون جديد، فهي قد وضعت عند المدخل بالضبط. وجد صالح نفسه مجبراً على الضحك، عندما اجتازت أقدامه عتبة الباب، مما جعل قاسم يسأله عن السبب، فأجابه صالح:

– لاشيء تذكرت نكتة قديمة.

بالفعل تذكر حكاية قرأها ذات يوم في إحدى الجرائد، تتحدث عن ولع العراقيين بالحديث في السياسة. فذات مساء اجتمعت شلة من الأصدقاء في أحد البارات وقررت بينها عدم الخوض في السياسة، ظلوا صامتين نصف

ساعة، يتطلع أحدهم بوجه الآخر وهم يكرعون كؤوس الخمر. وفجأة عاين أحدهم وجه الشخص المقابل له، وقال له، بأن شواربه تشبه شوارب أبو الزمير. فصاح أحدهم متسائلاً عن معنى هذا الـ«أبو الزمير» فأجاب آخر متحمساً، إنه سمكة صغيرة عديمة القشور، جلبها الإنجليز إلى العراق، و حينها بدأ الحديث عن الأسباب «الاستعمارية» التي اختفت وراء جلب الأسماك. فكر صالح برواية الحادثة، لكنه عدل. توجه بصمت إلى مكان فارغ عند زاوية القنفة، ولكن قاسم الذي لم ينشغل حينها بحلاقة أحد، أشار له أن يتجه مباشرة إلى كرسي الحلاقة.

جلس صالح فوق الكرسي، فيما أخذ قاسم يشد القماشة البيضاء على صدره. سأله:

- كيف تريد قص شعرك؟

فأجابه صالح:

- اللحية فقط.

دهن قاسم فرشاة الحلاقة في الصابون الذي استقر عند نهاية المرآة، ثم ليمرر الفرشاة على لحية صالح، ليسحب بعدها موسى الحلاقة الطويل، الذي مرره أولاً على قطعة جلدية تشبه القماش لشحذه. من مكانه يستطيع صالح تمييز ثلاثة رجال ظهر قسمهم العلوي في المرآة المواجهة له: اثنان طاعنان في السن، انفتح قميص أحدهما عند بطنه لسمنته المفرطة، فيما استقرت فوق وجهه نظارة طبية. أما الثالث فهو في منتصف الثلاثين تقريباً يرتدي بدلة أنيقة، لقد لفت نظر صالح بأن الشاب انكب على قراءة جريدة رياضية، إذ رأى صالح عنوانها البارز «اليوم لعبة العراق والكويت الأخوية»، انتبه صالح أيضاً إلى تطلع الشاب إليه بطرف خفي، فابتسم له، ابتسم هو الآخر، وقال بعد إزاحة الجريدة إلى جانب:

- يتحدثون عن لعبة الكويت والعراق، يقولون لايهم من يفوز ولكنها

ستنتهي كالأخريات التي قبلها، بتكسير عظام وتفليش سيارات.

واظب صالح على ضحكته المجاملة، ولم يعلق.

علق السمين:

– لايهم. كلنا عرب، هذا هو المقصود. لا يهم الفائز، لأنه في النهاية يذهب واحد منهم للعب على كأس العالم.

فتح الشاب فمه، وكأنه لم يسمع كلام السمين:

– أعتقد أنك المدرس الجديد في ثانوية كميت؟

وقبل أن يجيبه، نهض الرجل السمين من مكانه، واتجه صوب صالح ماداً يده:

– تشرفنا بحضرة الاستاذ..

فأكمل:

– اسمي صالح.

فأجابوا جميعاً باستثناء الشاب:

– أهلاً وسهلاً بالأستاذ.

بدأ السمين الحديث:

– أنا أيضاً مارست التعليم، داعيك مدرس، الآن حضرتي متقاعد. كان زمان، المدرس سلطة، ولكن الأمر تشابه الآن، حتى أنني أول من رفض وجود مدرسة مختلطة في كميت. ولكن العين بصيرة واليد قصيرة. طلاب وطالبات قليلون. عدد المدرسين غير كاف.

قاطعه الرجل ذو النظارة:

– ابق بطريقتك، نموذجا للتربية السيئة، عقلية قديمة، الاختلاط يسبب لأمثالك مغصا بالمخ، لايهمك غير السلطة. سلطة البيت، سلطة

المدرسة. روح شوف الإنكليز وتطورهم.

فقاطعه السمين:

- أخ لا داعي للاستفاضة بالشرح. بقايا الاستعمار. أعرف نظريتك، لبيرالية، النتيجة اللي حصلت عليها هي الطرد من التعليم، وها أنت موظف صغير في دائرة البلدية.

ضرب ذو النظارة على فخذه وأجاب بحسرة:

- ذنب الملعون الذي أخر المنطقة قروناً كثيرة بنظرية تعليمه القرقوشية.

فاعترض السمين مستنكراً:

- أرجوك لاتشتم أبا خلدون، أبو التعليم في العراق.

وقبل أن يجيب صاحب النظارة بـ - أخرا..

قاطعهما قاسم:

- أرجوكما أيها المحترمان، الحديث في السياسة ممنوع.

فأجاب السمين محتجاً:

- من تكلم بالسياسة، أغاتي؟

فأجاب قاسم الذي كان منغمساً في حلاقة وجه صالح وكأنه يمارس عملاً ضخماً:

- وهذه النقنقة ماذا تسميها، تاج راسي؟

تدخل الشاب ساخراً:

- وجهات نظر حول طريقتين تربويتين مختلفتين، طريقيتن في الحياة، أما أنا فأكتفي بالجرائد الرياضية. تعيش الروح الرياضية، العقل المتحمرن في الجسم المتحيون.

رد السمين بتهكم:

– أنت تسخر. عاين وضعك. انتهى الأمر بك مثل زميلك، استعمار غربي وشرقي يلتقون دائماً. العلم وطن ياحصيف، ويجب أن تكون له قيادة، مثل ما تكون قيادة للوطن.

فقال الشاب ساخراً وهو ينهض:

– انظر، القطعة هناك، الحديث في السياسة ممنوع.

ثم نظر إلى صالح، وقبل أن يخرج بادر إلى تحيته:

– مع السلامة، أكيد نلتقي.

فأجابه قاسم:

– اترك الأستاذ بحاله ولا تورطه.

ولكن الشاب لم يسمعه. لقد غادر المحل بسرعة.

شعر صالح ببعض الحرج من حديثهم. ألم يقرر هو الآخر «لاسياسة» بعد اليوم. لذا لم يجد غرابة في تعليق القطعة هناك. لقد ضحك فقط لتذكره الحكاية، وأيضاً لتفكيره، ماذا يحدث لو حملها وعلقها على صدره وطاف بها وسط المدينة. يقيناً ستكون «سياسة» لايدري من أين يأتي ناس مثل قاسم بهذه الجرأة على تعليق قطعة كهذه، ربما لأنهم لم يدرسوا التاريخ أو بدون ماض سياسي. وقاسم وكأنه تكهن بما يدور في رأس صالح، أباح له، فيما لم يكف عن حلاقة ذقنه:

– لا تعتقد تعليق القطعة أمراً سهلاً. مشكلة كبيرة.

ثم سأل:

– طبيعي حضرتك، تعرف عصام ماهود.

أراد صالح أن يقول إنه لم يحصل له «الشرف» لحد الآن لمعرفته

– أمرني أن أخلع القطعة، بحجة أننا نعيش بديمقراطية.

توقف قاسم قليلاً وضحك:

- ها ديمقراطية، رديت عليه شوف الديمقراطية تبقى عندك، أما كاني فأنا حر به، السياسة وراها المشاكل. في البداية عاند، ولكن في النهاية ل، تعرف حضرتك، أنني أنا الذي ختنته!

وعندما انتهى قاسم من جملته، انتهى من حلاقته لصالح، وعندما هم بوضع بعض من الكولونيا، أشار له صالح بـ «لا» ونهض. دفع له أجرته، رغم إلحاح قاسم وترديده «خليها علي هذه المرة» خرج صالح من الصالون وكأنه يخرج من العدم.

عندما أصبح في الشارع عاين ساعته، مازال عنده الكثير من الوقت، ففكر في التوجه إلى إحدى المقاهي. في المدينة ثلاث مقاه. الأولى عند طرف السوق المسقوف الذي يقطع المدينة من جنوبها حتى شمالها، وهي المكان الرئيسي لمحطة السيارات، إذ تكون دائماً مكتظة بالمسافرين القادمين من وإلى الناحية. أما الثانية فتقع وسط سوق الدجاج، سيطرت عليها رائحة الشحم وتزدحم في الليل. فهي مكان لتجمع المسنين الذين لا يذهبون إلا بعد سماعهم نشرة أخبار التاسعة للـ بي، بي، سي. أما الثالثة فتقع خلف المدرسة. في الصباح تكون مكان تجمع المتقاعدين، وفي الظهر تصبح ملاذاً للطلبة الفارين من المدرسة، فيما تصبح عند حلول المساء مكاناً لجمهور خليط يجمعه هاجس واحد، انتظار حلول الساعة السادسة، و للتوجة بعدها إلى نادي الموظفين. لذلك هي المقهى الوحيدة، التي تكون ليلاً فارغة، حتى يضطر مالكها جلو لإغلاقها مبكراً. من تلك المقهى انطلق صالح إلى أمسيته «التاريخية» كما يطلق عليها، بعد أن أتحفه جلو بواحدة من تعليقاته:

- مثل الورد وجهك. بدون لحية ترجع ثلاثين وراء.

ضحك صالح، وأراد أن يقول له إن عمره بالفعل بهذا العدد الذي يريد أن يرجعه منه إلى الوراء، ولا بأس إذا ما تحول جلو إلى فاوست، ليرجعه كل هذه السنين، لكنه غادر دون أن يخفي إعجابه بفكرة جلو.

سار على الطريق الأسفلتي الوحيد الذي يشق الناحية، والذي يتوازى مع النهر.

ليس بوسع السائر بموازاة النهر تجنب رؤية البيوت الثلاثة المجاورة للنهر.، أولاً بيت الحاج عبد الحسين الدلال، تاجر العلوة القديمة، والذي سفّر إلى إيران وختمت داره بالشمع الأحمر، فيما شاعت بين الأهالي الحكايات الأخيرة حول بيته. بعضهم قال إن الأضوية تشتعل في بيته ليلاً لأن روحه تزور الدار، الفريق الآخر يقول: إن عصام ماهود يستقبل أشخاصاً غامضين ويعقد اجتماعات سرية معهم كل ليلة هناك. آخرون يتحدثون عن حفلات عربدة وجلب راقصات من بيت الدعارة الذي تديره حسيبة. لقد أثارته كل تلك القصص عندما سمعها من جدته، وعندما سألها عن رأيها، أجابت:

– ولا واحدة منها صحيحة.

فقال لها:

– لكن الكل يتحدثون عن اشتعال الأضوية ليلاً، لقد رأيتها أنا بعيني.

أجابته:

– حاج عبد الحسين الدلال كان يخاف الله، كل سنة يزكي أمواله. الله يرسل الملائكة لتحرس بيته.

قريباً من تلك الدار التي بدت متوحدة ومنعزلة بعض الشيء بسبب وقوعها خلف الدارين الآخرين، امتدت دار السينما التي كانت في الأصل

داراً كبيرة قديمة، أو قلعة بالأحرى، حولها صاحبها عبد الله بعد أن ورثها من خاله إلى سينما مضيفاً بعضاً من الأراضي المجاورة (ربما لهذا السبب وجدت البلدية حجة كافية لإثارة المشاكل ضده) لقد مات خاله مسموماً في ظروف غامضة. كان منافساً لعائلة ماهود (يتكهن البعض في الناحية بضلوع ماهود في موته). لقد حلم عبد الله منذ طفولته بالأفلام والسينما، كان أكثر أطفال الناحية جنوناً عندما يرى السينما الجوالة التي كانت تمر مرتين أو ثلاثاً بالناحية. لقد وجد عبد الله الأمر سانحاً بتحويل الدار إلى سينما لهذا السبب. بالرغم من تحولها إلى سينما، فقد ظلت محتفظة بواجهتها القديمة. لم يجد أهالي القرية غرابة لما قام به عبد الله، إذ يعرف معظم أولئك الذين زاملوه في المدرسة الابتدائية، كيف أنه كان يحصل عن طريق أبيه الذي كان يشتغل مع جيش الحلفاء آنذاك على أشرطة سينمائية صغيرة لأفلام أمريكية، مما جعله يحمل تلك الأشرطة معه، ويريها الطلاب في تواليت المدرسة مقابل دفع إعانة. هكذا عرفت كميت مبكراً وبدون سينما أسماء شارلي تشابلن، جريغوري بيك، كاري كوبر، إيفا غاردنر وآخرين. يتذكر زملاؤه كيف أن مدير المدرسة ظفر به ذات يوم، ليطرده على الفور، قبل أن يكمل السادس الابتدائي، فالسينما كانت أمراً فاحشاً لا يغفر.

على بعد أمتار من السينما امتدت الدار الوحيدة التي انتشرت أضويتها بشكل لافت. كانت دار عقيد الشرطة ماهود الذي يملك جزءاً كبيراً من الأراضي المحيطة بالناحية، لا سيما دوشة الطيور الممتدة حتى مدينة العمارة. وفي تلك الدار كان على كل مدير ناحية جديد زيارتها أولاً، إذ منحه الإنكليز صلاحيات حاكم غير مباشرة، بعد أن أدخلوه دورة سريعة للضباط، ليتخرج بعدها ملازماً. لقد عرف ماهود آنذاك أن الفاتحين الجدد أكثر قوة، لذلك سارع بفك ارتباطه الذي ورثه عن أبيه من العثمانيين، وجمع العشائر المجاورة لكميت للقتال بجانب الإنكليز، وعدهم بالذهب والنقود. بالفعل

بعد انتصار الإنكليز استلمت العشائر أكياساً من النقود، لكنها مجرد أوراق لاغير. وعندما فكر محمد العريبي شيخ البو محمد في التمرد، جاءه ماهود على رأس قوة إنكليزية، اختطفه مع أبنائه ليلاً، وأجبره على قبول وظيفة نائب في برلمان العاصمة.

لم ينس أولاد ماهود المتعاقبون استبدال ولاءاتهم مع تبدل الحكومات. فمنذ الإنكليز، والحكومات المتعاقبة لا تثق بعائلة غيرهم، ولتثبيت نفوذهم، ليس في كميت فقط، توزعوا إلى كل أماكن الخارطة. تجدهم في كل المدن، وإن لم يكونوا هناك، فهناك عسسهم وعملاؤهم. تلك الحقيقة لم يعرفها صالح قبل مجيئه إلى كميت، كميت التي يبدو أنها ليست الملاذ الذي فكر أن يستريح فيه، إنما على العكس بدت كميت مثل حصن شرطة كبيرة، تديره هذه العائلة القوية. إذ أن عصام الابن الأكبر لهذا الأب الخرافي لم يترك كميت. لقد قرر عدم التفريط في ماضي أبيه، الذي يتبجح بنقاء دمه العربي. المضحك في الأمر، هو أن العائلة، رغم ولائها، لم تسلم ذات مرة من حملات التسفير المتكررة إلى إيران. فقبل سنوات تجرأ عقيد الأمن الجديد في الدخول في تنافس مع عائلة ماهود، فبطريقة ما حصل العقيد إبديوي على وثائق تثبت أصل عصام الإيراني. ولكن عصام بعنجهيته استطاع أن يفرض وبطرق ملتوية أنه، هو بالذات أكثر أفراد العائلة الذي يملك دماً عربياً أصيلاً (يقال إن أحد إخوانه البعيدين اشترك آنذاك في المؤامرة طمعاً في السلطة) هكذا تمكن من بث دعاية مفادها - معتمداً على غموض تاريخ ومكان ولادته- أن أباه هو ابن أمير عربي، فيما كانت أمه مجرد أسيرة إيرانية حصل عليها جده في إحدى غزواته ليزوجها إلى أبيه. وهو ليس ابنها كما هو شائع، إنما ابن «الكادحة» التي كانت تعمل في البيت، ولأن أباه لم يشأ البوح بتلك العلاقة، فقد حفظ هذا السر حتى موته، لذلك بدل

اا.فا ع عن أمه – أياً كانت منهما – أشاع الحديث عن بطولات جده
، ،وبته، غير ناسٍ التأكيد بأن أباه بعد أن شبع من «الدسبولية» جنسياً طردها
إلى وطنها ديزفول، لعدم قدرتها على التكيف مع الدم العربي الأصيل. هكذا
أ..ر الناس على الاعتقاد بهذه القصة المفبركة. أما إبديوي وأخوه فقد وجدا
ءاب يوم جثتين مرميتين عند الشاطئ، ومرة أخرى فبرك عصام قصة مفادها،
أن أخاه أراد الانتقام من إبديوي للحيف الذي الحقه بالعائلة، سار في جنازة
الأخ في اليوم التالي، وأقام مأتماً. باستثناء تلك المواجهة لم يجرؤ أحد على
ءواجهة سلطة عصام ماهود مباشرة.

لم يعتمد عصام في تثبيت سلطته على ماضي أبيه فقط، إنما اكتسب
.لطة كبيرة مع الوقت موزعاً إياه بين إدارة الأراضي الكبيرة ومسؤولياته في
كميت. دخل الحزب الحاكم مبكراً، في الوقت الذي كان فيه في أمس
الحاجة إلى المال والفرق الصدامية. عن طريقه تم تمويل هذه الفرق، ليس
في كميت فقط، إنما توزعت في المناطق المجاورة. من الجانب الآخر فقد
أظهر في الناحية جانبه اللين الإنساني فقط. فهو المناهض الذي لا يهادن لعبد
الحسين الدلال، بحجة إثرائه غير المشروع على حساب الناس، وأيضاً
المناهض اللدود للسينما مبرراً أن الوقت لم يحن بعد إلى دخول عادات
جديدة إلى مجتمع الناحية. في الحقيقة، أنه لم يشأ غير إزاحة عبد الحسين
الدلال والاستحواذ على علوة الخضرة التي يملكها، وكذلك الاستحواذ على
السينما أيضاً، وإلا لما قام بجمع الغجر من مناطق كميت المجاورة وتوطينهم
عند تخوم الناحية، كذلك سمح للقحبة حسيبة بفتح دار للدعارة لها هناك.
لقدد برر ذلك بسبب قدوم كتيبتين للجيش وعسكرتهم هناك.

وكما حدث في زمن أبيه لا يمكن لأي مدير ناحية جديد أن يحل
دون زيارته له، كما لا يتم تعيينه دون الحصول على موافقته. بل إن عصام

أدخل تقليداً جديداً بإدخاله هذا التعميم على الموظفين الجدد أيضاً. وبعد أن اعتاد العجوز استضافة مدعويه في البيت أو في المسجد، الذي مايزال يحمل اسمه، راح عصام يستقبلهم في نادي الموظفين، سيان إن كان الموظف يشرب الخمر أم لا. وإذا سمع عن تردد أحدهم بعث له بتهديده المبطن بإلصاق تهمة الانتماء إلى جماعة الدعوة، وفي أسوأ الأحوال يستفرد بأحدهم في غرفة جانبية عند سطح النادي، عكس عادته في استقبال مدعويه في صالة القمار عند الطابق الأول للنادي. هناك يلتقون كل ليلة، عصام ماهود، مدير الأمن، مدير الناحية، مدير الشرطة، مدير المدرسة، وغالباً ما يكون هناك ضيف جديد، وإلى تلك الصالة دعي صالح.

هبط المساء فوق الناحية تماماً. هبت نسمة هواء ندية، دخلت إلى مسامات جلده، فيما تحرك قميصه عندما لامسته الريح المنبعثة من سطح النهر، والتي جعلته يشد معطفه الخفيف حول جسده. دفع خطواته، وكأنه يعرف المكان منذ زمن بعيد، إذ حدثته جدته بما يكفي عن البيوت الثلاثة تلك. أثار النهر إلى جانبه بعض الاضطراب. لم يصغ إلى تردد أنفاسه فقط، إنما كان يسمع صوت طرطشة الماء. لبرهة شعر بإعياء بسيط، تباطأ في سيرة. قرر الاتجاه إلى ضفة النهر. ارتفع الطريق قليلاً عن حافة النهر. انزلقت أقدامه من السدة الترابية التي عملت هناك لتجنب مياه الفيضانات. أصبح أسفل الجادة الترابية.، عاين صفحة المياه التي عكست ترجرجاً لحركتها فقط، إنما احتاجها توالٍ متقطع لغيوم صغيرة. رفع رأسه ليرى فيما إذا كانت ليلة بيضاء أيضاً. ضحك. ستكون المعجزة بالفعل، لو عاشت كميت ليلة واحدة بيضاء. بسرعة سرى الوجد فيه. ترى ما الذي ستقوله ماجدة عندما تنتهي من الكتاب؟ انحنى ليرفع حجراً ويلقيه في النهر. مع اتساع الماء يتسع السؤال في داخله، يشعر بخوف يستحوذ عليه، خوف يمتزج مع المساء الذي يهيأ لقدوم ليل آخر. لماذا يحزنه غروب الشمس بهذا الشكل؟ إذ

ما ابتعدت الشمس، كلما يبدأ شيء في داخله كالأنين، يجلب معه الحزن. كلا لم يكن الخوف، إنما شيء أشبه بذلك. مرة أخرى يبرز السؤال في ذهنه «ما الذي حملك إلى المجيء إلى هذا المكان – الشرك؟» وبيأس يقول لنفسه «ليست هناك ليالٍ بيضاء وحتى تلك التي تخيلها فقدت بريقها. ثم يكشف أنه متعب. تعب يجتاحه، كما يجتاح صوت المؤذن في الناحية بـ «الله وأكبر» يعصر رأسه بيديه «لماذا يحمل المساء كل هذا الأسى» ترى هل فقد توازنه؟ أم هو على مطب الجنون؟

فجأة وبسرعة نهض من مكانه، قفز إلى السدة، وكأنه يهرب من نفسه ومن الله دافعاً أقدامه باتجاه النادي، يصاحبه عياط المؤذن «الله أكبر». لا يدري لماذا فكر بالله. ارتعب. منذ سنين لم تمر به هذه الفكرة. لقد انتهى الأمر إليه عندما كان في الثانية عشرة. لقد ارتبط الله مع تلك الليلة التي قاده فيها أبوه إلى أحد جراحي المدينة. فقد أخبره ذلك اليوم بأن ختانه قد حان ولا يمكن تأجيله. لقد بوغت صالح بالخبر آنذاك، وتأسف على ضياع قلفته التي كان يتفاخر بها أمام زملائه، بسحبها وإخراج الدهون المتجمعة خلفها، التي كان يستمتع بشمها بعض الليالي. تلك الليلة سأل أباه، فيما إذا سيتفق مع الطبيب على تبنيجه، فأجابه بأنه أمر طبيعي. كلا لم يفعل الطبيب ذلك. مازال يتذكر المشهد. كان ملقىً على السرير، وقد أمسك أبوه بيديه، في الوقت الذي أمسك عمه فيه برجليه، فيما راح مقص الطبيب يشتغل هناك عند القلفة. كانت القبلات التي يتلقاها من أبيه عزاءه. كلا، لم يكن ختاناً، بل كانت تجربته الأولى مع التعذيب. لقد صرخ حينها، ولكن عبثاً، فقد كان صراخه يضيع ومن وسط دموعه التي أغرقت وجهه، كان يرى وبصورة مشوشة القلادة التي تدلت من صدر الجراح، كان المسيح مسمراً على صليبه. لقد خف ألمه، عندما تذكر المسامير التي ثقبت الجسد المصلوب

أمامه، وهو لايشعر سوى بمسمار واحد من تلك المسامير يمزق عيرة.

تذكر أيضاً أنه في حضرة الطبيب «سورين صليبا»، الجراح المسيحي المشهور في المدينة. هل كان سورين يهوذا؟ أو كان سورين يرى في قلفة صالح يهوذا؟ لم يعثر على جواب، ولكن شيئاً واحداً استحوذ على أفكار تلك الليلة، كان عليه أن يعذب من أجل الله وعلى سرير عيادة المسيحي سورين. لقد تساوت الأديان عنده هناك، فأصبح من الصعب عليه تمييزها. لقد تجمع كل شيء تحت فخذيه، تلوث بدمه عند الفخذين. لقد عرف منذ ذلك الحين، أن كل سلطة خوف، عذاب، وعندما فصل سورين القلفة، فصله عن كل ما يمت للأديان، بل عن كل ما يمت للسلطة.

لماذا تنثال عليه هذه الصور الآن؟ ألأنه ذاهب إلى حضرة عذاب أخر؟

من هو هذا الـ «عصام ماهود» هذا؟ مقص يهوذا الجديد؟ ولكن لم تعد له قلفة. ماذا يريد منه. اللعنة، ليكن ما يكون. يلمس جبهته، يشعر بحمى تسري لتوها. يتحرك بخطوات أسرع، وكأنه يريد الوصول قبل خذلان جسده له. لم يكن النادي بعيداً عن الساحة الترابية. وكلما اقتربت أضويته التي كانت تبرق وسط الظلمة، كلما تطامن في داخله، دون الدخول في تفاصيل ما سيحدث الليلة. لم يشأ التفكير طويلاً، إنما اندفع ببساطة باتجاه باب النادي، دخل الممر، بعد أن رد على موظف الاستعلامات دون إبراز الهوية الشخصية التي طلب منه إبرازها: «أستاذ صالح سلطان». ألقى بجملته، وكأن الناحية تعرفه منذ سنين، مما جعل الموظف يصمت. في طريقه.، سأل نادلاً مر به: «أين الجماعة؟»

تساءل النادل، دون أن يخلو صوته من التهكم:

– أيه جماعة؟

أجاب، وهو يمسك النادل من كمه:

أقصد أستاذ عصام...

وقبل أن يكمل، أجابه النادل متلعثماً:

– تصعد الدرج، أول غرفة على اليسار.

صعد صالح السلم، فيما صاحبه صوت أم كلثوم المنبعث من الصالة «كل ليلة وكل يوم، أسهر لبكرة، في انتظارك ياحبيبي» لبرهة يختفي الصوت، ويمتد أمامه طويل، عند نهايته تقريباً إلى اليسار وصلت سمعه قهقهات وضجة. لم يجد أمامه سوى باب واحد. اتجه صوبه، ودون طرقة، أكرته. ومن خلال الدخان الذي اكتظت الغرفة به سمع صوت مدير المدرسة يأتيه:

– أستاذ صالح تفضل.

ليس من الصعب تمييز وجوههم. تفحصهم الواحد بعد الآخر، قتيل يمعن في وجه قاتليه، قبل الطعنة الأخيرة. جلسوا بشكل دائري، امتدت بينهم مائدة مستطيلة تجمعت فوقها كؤوس الخمر وصحون المزة والزجاجات بفوضى واضحة، فيما تبعثرت عند زاوية المائدة القريبة من عصام ماهود أوراق القمار. من طرفهم لم يحدقوا به كما فعل هو، إنما تصرفوا وكأنهم يعرفونه منذ زمن، لم ينتبهم أي فضول، إنما تابعوه بهدوء حتى أصبح قريباً منهم. نهضوا من أماكنهم قليلاً، حتى بانت حركتهم مفتعلة، زائدة، عندما بدأوا يصافحونه الواحد بعد الآخر، ثم ليفسح مدير المدرسة مكاناً له بجانبه، بالذات في المكان المواجه لعصام ماهود الذي شعر صالح بتفحصه له بعيون ثعلب. فكر صالح بأن عصام بتفحصه الغريب له، يريد معرفته تلك الليلة، وعلى دفعة واحدة، فهو كما يبدو من صنف الرجال الذين يريدون الحصول على كل شيء أو لا شيء. بصعوبة انتزع صالح

ابتسامة من فمه، جعلته يطمئن بعض الشيء. وعندما انتهوا جميعاً من ترديد الـ «الله بالخير» التقليدية، دفع له مدير الشرطة، الذي جلس إلى شماله بقدح من الويسكي رده صالح بحذر قائلاً:

– لا أطيق الويسكي. أفضل الزحلاوي عليه.

ضحك عصام ماهود. تناول قدحاً فارغاً، صب به العرق، ثم أضاف له بعضاً من الماء والثلج، ليدفع به إلى صالح بصوت لا يخلو من السخرية:

– تفضل مشروب الشعب. فقط البيك الأول. الباقي تعمره أنت. أنت أعرف بالنسب المطلوبة.

أجابه صالح متشكراً وهو يتناول الكأس. ثم أضاف قبل أن يدفعه إلى فمه:

– بصحتكم.

رفعوا هم الآخرون كؤوسهم هاتفين:

– بصحتك.

دفع صالح القدح الأول كله إلى جوفه، فقد دأب على شرب البيك الأول دفعة واحدة. بسرعة امتدت يده لأخذ قطعة من الليمون من أحد الصحون المستقرة فوق المائدة. بدا في تعمير القدح الثانية دون التطلع إليهم، فيما بدا خدر لذيذ يسري في عروقه. فجأة أخذت الريبة تغزوه. «ما الذي حمل عصام ماهود على دعوته؟» وهو عندما سأل جدته ذات مرة عما تعنيه، أجابت «حكومة العثمانيين والإنكليز وكلوهم على الناحية» ثم أضافت بعد تحسر «كل السلطة والملك عندهم». وهو عندما جاء هذه الليلة، حمل انطباعاً ما في داخله، غامضاً بعض الشيء لكنه كان مقتنعاً بأنه قد تهيأ لهذا المساء، لكن الشلة بدت له غريبة، فهناك ماهو سري ومريب بينهم. وقبل أن يسأل نفسه ماذا؟ دفع جرعة جديدة إلى فمه. وضع القدح فوق الطاولة. ردد

،م نفسه «ليكن». أسند رأسه هذه المرة إلى المقعد. امتدت يد مدير الأمن العام له سيجارة روثمان. دفعها صالح بلطف:

– شكراً لا أدخن الروثمان، أدخن سومر.

لم يمر وقت طويل على إنهاء جملته، حتى جاءه صوت عصام من بين دخان سيجارته التي أشعلها للتو:

– الروثمان سيجارة امبريالية. الويسكي أيضاً.

لم يعلق صالح. أصر على تجنب كل حديث سياسي. ولبرهة صمتوا، ، ما حاول صالح انتزاع ابتسامة من فمه، لتختفي بسرعة عند سماعه صوت عصام الذي بدا متحفزاً هذه المرة:

– أعرف ما يقول بعض جماعتك القدامى. ندعي الاشتراكية وندخن سجائر امبريالية ولا نشرب الويسكي. وهم؟.. يشربون الفودكا.

صمت عصام وكأنه تذكر شيئاً فأضاف بلهجة لطيفة مصطنعة:

– لايهمك، أعرف أن علاقتك بهم منقطعة. ولكن تتفق معي. كل هذه التعليقات ترهات لا أكثر ولا أقل.

ثم تفحص صالح الذي أخرج علبة السومر من جيبه، ليستل واحدة منها ويشعلها.

– تدخن سومر. كيف تحصل عليها، وهي صعبة الحصول هذه الأيام؟

شعر صالح بالارتياح لتغيير مجرى الحديث وتغيير عصام للهجته، سحب نفساً عميقاً من سيجارته، دفع جذعه قليلاً إلى الأمام، ثم دفع ما بقي من قدحه إلى جوفه. وبعد تناوله قليلاً من الجاجيك، قال:

– جارنا..

وقف قليلاً، وانتبه ألا يذكر بأن جارهم عسكري، ويحصل عليها بسهولة من حوانيت الجيش، لذلك أردف:

– جارنا يحصل عليها بطريقة ما، عن طريقه أحصل على كميات لا بأس بها.

مرة أخرى ساد صمت غير عادي تخللته أصوات الأقداح، فيما راح الدخان يغزو الغرفة أكثر، لا يدري صالح كم عدد الأقداح التي شربها، عندما جاءه صوت مدير الناحية:

– ما رأيك بالناحية؟

أسند ظهره إلى المقعد وأجاب باقتضاب:

– صعب تكوين انطباع سريع.

ولكن في داخله يعرف ماذا تعني هذه المدينة الصغيرة. له. ألم يخترها هو بالذات؟ لقد ارتبطت في ذهنه بصور بعيدة، عبثاً يحاول استرجاعها. ليس من السهل استحضار كميت القديمة، التي زارها مرات عديدة في طفولته، حيث ما زال جده في عنفوانه، اعتاد أخذه معه إلى السوق،. أو إلى طاحونته الواقعة عند أطراف الناحية. لقد أنشئت البيوت فوق مكانها القديم. صحيح أن المدينة لم تتغير كثيراً إلا أنه يمتلك صورة أخرى في ذهنه، كلا لقد تغيرت. ألم يشعر آنذاك بيت ماهود بخطر وجود طاحونة جده. فذات مساء جاء ماهود إلى الطاحونة، يصاحبه بعض رجال الشرطة، وبصوت غاضب، أعلن لجده، أن عليه إغلاق الطاحونة، لأنها «ماخور للنساء، لا أكثر» كما صرح هو متهماً جده بممارسة الجنس مع نساء الناحية والقرى المجاورة في الطاحونة، مقابل إغرائهن بطحن الحبوب بدون ثمن. لم يستطع جده الرد، إنما أسلم الأمر، عارفاً سلطة ماهود. من طرف آخر كان يحاول الإبقاء على الطاحونة بطريقة دبلوماسية. عبثاً. لقد سيطر بيت ماهود. وما اتهموا جده به وراحوا يفعلونه في العلن. بل يتفاخر بعضهم بعدد القرويات اللاتي ضاجعهن مقابل عدم أخذ أجرة طحن القمح. في الوقت الذي لم يفعله جده – كما أباحت له جدته– سوى مع بعض النساء اللاتي أعجبهن «النوم

(١٩٨٥.

لقد عرف صالح أية سلطة امتلكتها الطاحونة بعد ذلك. لقد منع الكثير من القرويين بناتهم أو زوجاتهم من الذهاب بمفردهن إلى الطاحونة، والتي انقرضت مع الزمن، لتحل مكانها بدائل أخرى. وصالح من طرفه لم يعش عبر الناحية بتفاصيله، لقد استقرت الصورة القديمة في ذهنه، لذا عندما شعر باختناقه في بغداد، وأنه لا يستطيع تحمل جحيمها طويلاً، والقبول بما فعله، مواجهاً أصدقاءه القدامى، بعد توقيع التعهد، لم يفكر بمكان آخر غير كميت. لقد سئم بغداد، وبدأ شيء كالقيح يثقل عليه، يخنقه، يحثه على مغادرتها بسرعة. لذا لم يجد مدير تربية بغداد عناء كبيراً معه، عندما خيره بين القبول بوظيفة في إسالة الماء أو نقله إلى قرية بعيدة. ودونما تفكير طويل هنا قفزت كميت إلى ذهنه. حتى أنه لفظ الاسم بوجد متذكراً بيت جدته. لقد زارها في السنوات الأخيرة في فترات متقطعة، ولكن لم يبق هناك أكثر من ليلة. هذه المرة، الأمر يختلف. لقد قرر الابتداء من جديد. بالرغم مما حدث ويحدث له، لم يشأ الاستسلام على الإطلاق. لقد كان مغلفاً بمشروعه، متاعه صور طفولة بعيدة في هذه الناحية، صور ليالٍ بيضاء.

لبرهة حاول استرجاع تلك الصور مرة أخرى، إلا أن صوت مدير الشرطة أيقظه:

– أرجو أن يكون ابني عوف تلميذاً جيداً.

فوجئ صالح بالسؤال.

أضاف المدير:

– تعرفه. فهو الأشقر الوحيد في الصف.

هز صالح رأسه بـ«نعم»، مخفياً دهشته في داخله، لعدم تشابه الأب مع ابنه، فعوف الأشقر بدا مناقضاً تماماً لوجه أبيه الحنطي ذي الشعر الأسود.

علق صالح:

– إنه تلميذ ذكي على ما أعتقد.

صاح عصام من مكانه، بعد أن دفع القدح إلى فمه دفعة واحدة:

– لكنه يتجاوز حدوده. وجودي، ربه ودينه سارتر. لا يؤمن بالله، إلى حد أنني سمعته يقول ذات مرة، حتى لو كان الله موجوداً، لما احترمته.

وبتملق واضح عقب مدير الشرطة:

– أستاذ عصام، لا تنس أنه مازال مراهقاً.

وقبل دخول الاثنين في نقاش طويل تدخل مدير الأمن الذي كان حريصاً ألا يشتط الاثنان في حديث جانبي وينسيا الموضوع الرئيسي:

– اسمحا لي مقاطعتكما.

ثم إلتفت إلى صالح:

– أستاذ صالح.

سكت ليتفحص الوجوه، وبعد تطامنه لسكوت الجميع، دفع بقية الويسكي إلى جوفه، رفع رأسه باتجاه صالح وفتح فمه:

– أستاذ صالح سأحدثك بصراحة.

لقد ظل محتفظاً بكأسه، ممسداً إياه، فيما سحب صالح نفساً أخيراً من سيجارته، ثم دفع جذعه إلى الأمام ليطفئ السيجارة في المنفضة المستقرة على الطاولة. كور يديه في حضنه، فيما بدت عيناه ناعستين، فقط أذناه كانتا تسمعان الصوت الذي بدأ يأتيه واضحاً:

– وصلنا ملفك. أعتقد أن السيد مدير المدرسة حدثك عن الموضوع.

ثم أطلق ضحكة مفتعلة، وربت على كتف صالح:

نرحب بك في ناحيتنا الصغيرة، ونتمنى لك النجاح.

وإذ رفع صالح رأسه ليسأله عن داعي هذه المقدمات، لقد وقع التعهد ...، ولكن مدير الأمن أشار له بالتريث قليلاً:

– إننا بحاجة لكل رجل شريف مثلك. رجل يتحدث عن ماضيه ...اهه دون خوف، ويحاول تغيير نفسه نحو الأحسن.

صمت مدير الأمن، ليسود بعدها هدوء مريب، عقدوا أيديهم حول صدورهم، دافعين جذوعهم إلى الخلف، ينتظرون مدير الأمن، الذي انبعث صوته من جديد، ولكن متقطعاً هذه المرة:

– قرأنا ملفك جيداً. نعرف كيف أنك غيرت ماضيك. لم تعد لك علاقة مع الشيوعيين، قبحهم الله. نأمل استمرارك على هذه الوضعية. لأنه مازالت عندهم ذيول في الناحية، سننتهي منها قريباً.ولكن لايهم، المهم أن تستمر على وضعك. صحيح أن توقيعك التعهد جاء متأخرا. لاضير، الحزب صبره طويل. مثلاً أنت لم تطلب حتى الآن الانتماء إلى حزبنا العظيم، إلا أن تعهدك في الوقت الحاضر يكفي. ومثل ما قال مدير المدرسة، عليك الاكتفاء بتدريس التاريخ بموضوعية.

صمت، ثم أردف:

– بالموضوعية الحقيقية التي نعرفها جميعاً، كما هي موجودة في الكتب، وألا تزيف على طريقة الشيوعيين، التي تقول التاريخ صراع طبقي. التاريخ واضح يا أستاذ ولا يحتاج إلى لف ودوران. غير مسموح الشك في تاريخ أمتنا المجيد التي حكمت من أسبانيا حتى الصين دون حاجه ذلك الوقت للشيوعية. شعبنا لايريد الشيوعية، وأبناؤنا الطلبة عطشى لمعرفة تاريخهم

القومي.

توقف مدير الأمن مرة أخرى، ومرة أخرى صرخ الصمت في المكان. فرفع مدير الشرطة قدحه وصاح:

- بصحة الأستاذ صالح.

رفعوا أقداحهم ضاحكين. في تلك اللحظة عمر صالح قدحاً جديداً دفعة واحدة إلى جوفه. تناول ملعقة جاجيك والتهمها بسرعة. راح حديث مدير المدرسة يدور في رأسه. هل صحيح أنه وقع التعهد بالانضمام إلى حزبهم ولكن متى حدث ذلك وأين؟ يتذكر أنهم أجبروه في غرفة مدير التربية على توقيع التعهد. ألم يخيروه بين التوقيع أو إرساله إلى معتقل المخابرات؟ سحب مرة أخرى علبة سجائره. أخرج سيجارة، أشعلها بسرعة، ثم شرع يحدق بالجالسين. سحب نفسا عميقاً من الدخان، ورأى كيف أنهم هم الآخرون حدقوا به، كأنهم ينتظرون تعليقاً منه. شعر أن المكان يضيق، ولن تساعده جرعة العرق الجديدة، أو سيجارته التي دخنها بعمق، اكتظ رأسه، وثمة ما يضغط عليه، يمسك صدغه بيده، يشعر بدوران غير عادي، كل شيء يدور. الغرفة، الرجال، العالم. يسحب نفساً آخر. بل جرعة أخرى من العرق. ثم يعاين وجوههم التي تتبدل أمامه وتتداخل مع وجوه جلادين آخرين، رآهم في مكان ما. أين؟ يكتظ رأسه. يحاول التركيز. عبثاً. ترى ما الذي حصل له؟

يدفع جرعة أخرى، يدعس السيجارة في المنفضة، بينما تطن في الرأس فكرة واحدة: كم من السهل النهوض من مكانه، وقلب المائدة في وجوههم. ما الذي حصل له؟ هل هو على مطب هلوسة غير عادية؟ دوامة من الأسئلة تتزاحم في رأسه. برهة يستسلم لها، ليعود ويقول لنفسه: «ألم

ىرر الابتداء من كميت. فلماذا لاتبقى هادئاً وتنهي هذه الليلة بسلام. إنها مجرد ليلة» يهم بجمع قواه، فيخرج صوتاً واهناً بعض الشيء لكنه هادئ جداً

– أرجو أن أكون عند حسن ظن الجميع.

دفع يده لتمتد إلى كتف مدير المدرسة الذي جلس على يمينه:

– أرجو أن يرضيك سلوكي، طبعاً التاريخ واضح مثلما تفضل السيد مدير الأمن.

ابتسم مدير الأمن وقال:

– جيد أستاذ صالح.

ودفع قدحاً جديداً كان قد عمره له مدير المدرسة. عاينهم صالح، ومرة أخرى أخذ كل شيء يدور في رأسه «انقلاب عسكري» أو «انقلاب عرقي»، سخر في داخله. كان كمن يجلس في دولاب هوائي، يدور في حركة لانهائية. هل هو العرق؟ «كلا» ليست المرة الأولى التي يشرب فيها، ألم يشرب الزحلاوى مرات عديدة بدون الماء والثلج، «سادة» كما يسمونه. هذه الليلة لم يشرب «السادة» لكي لايتعجبوا من «شعبيته». يقيناً سيتساءلون «مدرس تاريخ أم سائق»؟ لقد خاف تعليقهم،. ربما سيعلق أحدهم «أستاذ صالح هل درست التاريخ أم احتراف شرب الخمر؟» المغفلون، لايعرفون أن التاريخ جرعات خمر. بل إنه ليس غير حالة من الثمالة. ليست هناك لحظة صحو واحدة في التاريخ. كل كتب التاريخ التي قرأناها لم تكتب في حالة صحو. ما زال يتذكر تعليق «صالح الطويل» خمار محلته العريق، عندما شاهد عنده كتاب «خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء»، قال له ضاحكاً «بربّي هذا سكران حقيقي». نعم كلهم سكارى. هتف صالح في داخله، his sto-

ry كل واحد له قصته. «لنتمل بالتاريخ، أيها الإخوان» من سيكتب عن تاريخي الذي بدأ عده التنازلي. هلوسة، هذيان، ليكن ما يكون. كل شيء يدور. دوامة تلف رأسه، فيتذكر ما قاله مدير الأمن مرة أخرى. يشعر برغبة قوية في البكاء، يغرس أصابعه في شعره ويهمس في داخله «لماذا وقعت التعهد؟» و«لماذا قلت تلك الجملة القميئة سأكون عند حسن ظن الجميع» ؟ لماذا لم تصمت؟. كان على يقين أن عذابه سيطول. يعرف أن الجمل التي أطلقها لم تخرج منه هو، صالح سلطان. لقد خرجت من مكان ما في داخله، من نقطة ما لا يستطيع تحديدها على أية حال «سأكون عند حسن ظنكم» ليكن ما يكون. ابحث لك عن عزاء آخر. طز. وبوهن يسمع صوتهم يأتيه:

– هل تلعب البوكر؟

هل أشار برأسه بـ«لا» ؟ لايدري. شعر بالاختناق. المكان لايسع حدود الانفجار في نفسه. لايرى سوى يد واحدة تخلط أوراق اللعب.

عبثاً يحاول فتح عينيه باتساعهما، ليرى الأوراق، يختلط كل شيء أمامه، ويدور، الأوراق، السجائر، الأقداح، الأضوية، حركات الأيدي، صوت استلال النقود الذي بدا كاستلال خناجر. «ما الذي فعلت بنفسك ياصالح؟» فجأة يشعر بثقل قدميه، يخرس لسانه،. وبصعوبة ينتزع جملة من فمه. خرج صوته مضغوطاً.

– أريد أن أدفع.

جاءه صوت عصام ماهود، وكأنه يأتيه من بئر عميق:

– عيب. أنت ضيفنا. ثم أنت لم تشرب غير العرق.

لم ينتبه صالح إلى الجملة الأخيرة التي لم يخف عصام سخريته فيها، فهتف وكأنه يتحدث مع مجهول، إذ كانت عيناه زائغتين في الفراغ:

- أشكركم جميعاً.

مال بعض الشيء، دفع بصره باتجاههم. انهمكوا في توزيع الأوراق، فيما انشغلوا في الحديث بينهم، وكأن وجود صالح لم يعنهم. لقد بقي اضطرابه، غير عارف أنه لم يكن بالنسبة إليهم أكثر من جسم حيادي، كتلك الطاولة الممتدة بينهم، أو كورق اللعب، أو كالغرفة التي اكتظت بدخانهم، لذا لم يتحركوا، عندما شعروا به ينهض ويجمع قواه مثل حشرة ضخمة. إذ دون أن ينهضوا من أماكنهم، صاحوا به بصوت واحد «مع السلامة» فيما لم يتوقفوا عن انشغالهم باللعب.

لم يشعر صالح إلا بمدير المدرسة يرافقه حتى الباب. وعندما أصبحا في الممر، توقفا، وقبل أن يتجه صالح لينزل الدرج، بادره المدير:

- أرجو أن تكون الليلة أعجبتك؟

ثم بتملق واضح:

- أرجو ألا تخيب ظنهم، تذكر، لاسياسة. أنت مدرس تاريخ. التاريخ لايتحمل السياسة.

هز صالح رأسه موافقاً. ضربه المدير على كتفه:

- على أية حال، عليّ إبلاغك أيضاً. أن السيد عصام يريد مرافقتك له في المرة القادمة إلى بيت حسيبة.

رغم سكره، فإنه لم يخف اندهاشه من هذا للطلب الغريب، أراد أن يسأل المدير الذي عرف من طرفه مافي نيته، فدفعه في خفة:

- نتحدث عن القضية في المدرسة. أنت تعبان الآن.

نزل صالح الدرج. جاءه صوت أم كلثوم «كل ليلة وكل يوم.. بسهر لبكرة، بانتظارك ياحبيبي»، ما الذي جرى، حتى تطارده الأغنية ذاتها التي صاحبته حين دخوله. أخذ يسرع السير، وعندما أصبح عند باب النادي سمع بقية الأغنية «ياترى ياواحشني بتفكر في مين، عامل إيه فيك الحنين»، للحظة وجد نفسه يردد «سهرت السهر في عينيّه» حتى أصبح عند الشارع. بدأ في السعال بقوة، فراح يتكئ على سياج حديقة النادي. لم يتوقف طويلاً، إذ اندفع من فمه قيء قوي. شعر بمعدته تتمزق تواصل القيء يخرج من فمه، كأنه لم يتقيأ منذ سنين. بعد أن أفرغ كل مافي معدته، هدأ رفع نصف جذعه الذي كان منحنيا،. وأخرج من جيبه ورق كلينكس ومسح فمه. رمى الكلينكس بعيداً، شعر بالارتياح بعض الشيء فأغمض عينيه قليلاً ليفتحهما على صوت يناديه، بالضبط في تلك اللحظة التي هم في التحرك بها:

- أستاذ صالح ليش جيت لكميت؟

التفت إلى مصدر الصوت، فرآه بقامته الطويلة. من الصعب تمييز شكله وسط ذلك الليل، عليه أن يفتح عينيه باتساعهما. وهذا مافعله. من أجل رؤية الوجه المحفور بالتجاعيد المغطى بلحية بيضاء. لقد امتد الشيب حتى شعره المجعد الكثيف عند الرأس ولولا الصلعة المطلة على مقدمة الرأس، لكانت سحنته غريبة بالفعل، مثيرة للخوف في ذلك الليل. لقد أضاف منظر الثياب المتهرئة أيضاً، والابتسامة التي تشكلت على شفتيه الغليظتين ذات الخطوط العريضة، طمأنينة ممزوجة بالفضول لدى صالح، منعته من الارتياب مما حصل، إذ اقترب الرجل منه ببطء وبشكل ودود. ابتسم صالح هو الآخر، وهز رأسه متسائلاً عما يريده هذا الرجل الغريب، الذي وقف ليدور حول نفسه دورتين، رافعاً ذراعيه على شكل جناحين، لم يتوقف صالح عن

مره، إنما دارت عيناه مع دوران الطائر المجنح. ضحك وفتح فمه:

– ماذا تريد أيها العزيز؟ ثم من أنت؟

كف الرجل عن الدوران أخرج كيساً من التبغ، وراح يلف سيجارة، انهى منها بسرعة. ناولها إلى صالح، الذي وضعها في فمه مباشرة. لم يضع الرجل التبغ في جيبه، إنما ظل ماسكاً به بين أطراف أصابعه، وراح يلف سيجارة له. لم تمض دقائق حتى وجدا نفسيهما يسيران بمحاذاة النهر. خطا الرجل بعض خطوات متقدماً على صالح، ليجلس عند صخرة نزلت عن السدة المرتفعة أمام النهر. أشار لصالح أن يجلس بجانبه. أصبح صالح ملاحقاً له فأشعل سيجارة صالح ثم سيجارته، نفث نفساً أو نفسين، كأنه تطامن لصمت صالح. ضحك:

– أقدم لك نفسي خليل المخبل هل عرفت في حياتك مخبلاً يعترف بخبله؟

فسأله صالح:

– كيف تعرف اسمي؟ ماذا تريد مني؟

ضحك، دون أن يكف عن تدخين سيجارته.

– على كيفك، اسأل بالتتابع.

صمت صالح، وبدا له خليل ودوداً، غير مؤذ. من أين تأتيه الريبة بكل شخص. لا يهم إن كان سوياً أو مجنوناً. هل تطامن لاعتراف خليل له بأنه مخبول؟ ألا يضحك الرجل عليه؟ أو ربما هي هلوسة سكران؟ لم يشعر بأنه بالفعل مجنون. لم يمهله خليل الكثير من الوقت في تداعياته:

– أعرف اسمك من عوف. تلميذك يمر علي غالباً. صديقي الوحيد في هذه البلدة المجنونة...

صمت ليسحب نفساً آخر من سيجارته، ثم أكمل:

- كوخي هناك، عند أطراف كميت، عند نهايتها. أحسن مكان يمكنني من مراقبة الناحية.

صمت، ثم أردف ساخراً:

- هذا إذا ما تركني سيد البلدة بسلام؟

سأل صالح:

- تقصد عصام ماهود؟

انتهى خليل من تدخين سيجارته، عاين صالح متعجباً هذه المرة:

- ها. إنك بدأت تفهم.

لم يجبه صالح، الذي بدا كأنه لم يفهم شيئاً.

- صالح، قل لي، ليش رجعت للناحية؟

فتساءل صالح مندهشاً:

- رجعت. متى كنت هنا؟

فرد خليل بسرعة:

- كل طفولتك عشتها هنا، لكن الزمن تبدل. تلك الأيام كانت أعقل من هذه الأيام. ممكن أخبل. لافرق. لكن أرجوك جاوبني على سؤالي، ليش جيت لهذه المقبرة.

ألقى صالح بالسيجارة التي حرق عقبها أصابعه، حتى أن صوته بدا منفعلاً بعض الشيء لايدري فيما إذا كان بسبب الحرق، أم بسبب إلحاح هذا الرجل الغريب الذي حل فجأة والذي جعله يدوخ مرة أخرى. لقد أجاب مذعورا، وكأنه لُدغ:

- مقبرة؟ لماذا تقول مقبرة؟ ثم ماذا تريد مني؟ من بعثك لتعذيبي بهذه الأسئلة؟ لقد كففت عن إلقاء الأسئلة على نفسي وعلى الآخرين

منذ زمن طويل. لست مطلوباً لأحد. بل لست مطلوباً حتى لنفسي ذاتها. لمسه خليل عند ذراعه، كأنما يهدئ طفلاً صغيراً. أبعد صالح يده. نهض خليل من مكانه، جنح يديه مرة أخرى، وشرع يدور دورات عديدة. توقف. عاين صالح بتمعن. ظل صالح محافظاً على جلسته الحزينة، المنكسرة، بل المفجوعة.

– أنا مخبل. خذ نصيحة مني وطر بأسرع وقت من هذه المدينة، عوف أخبرني اليوم بنيته في الطيران. عجيب منك ومن كاظم. انتهى زمن الأبطال.

قاطعه صالح فجأة:

– لا أبطال ولا بطيخ. حل عن طيزي. ثم لماذا تحدثني عن عوف؟ ومن هو هذا كاظم؟

واصل خليل حديثه. وكأنه لم يسمع تساؤلات صالح:

– عوف طير صغير على هذه المقبرة، حدثني عنك أكثر من مرة. لهذا السبب أحثك على الطيران. عبد طير جلد مثلك.

نهض صالح من مكانه:

– ابعد عني أرجوك. من أنت لكي تحذرني؟ ما علاقتك؟ ما علاقتي أنا بهذه الأمور؟

ضحك خليل:

– لا تخف مني، راح اختفي عنك مثل ما التقيتك، أطير بعيداً مثل الدخان، مثل الماضي، احذر أرجوك، لأنك مرشح للموت. كميت مقبرة

خذ نصيحتي.

صعد صالح إلى الجادة الترابية، وسأله هازاً يديه بانفعال:

- من أنت؟

- لايهم أنا مجرد مخبول، يبحثون عنه منذ زمن. لاتنس زيارة كوخي عند أطراف كميت. مازال هناك، مكان اسمه كميت، تدري؟

برهة تفحصه صالح، وكأنه يريد تثبيت سحنة في ذهنه، كي لا تهرب منه، رفع ذراعه، ودعك شعر رأسه باضطراب:

- أرجوك، خليل، اتركني، أو سأتركك هنا. لاتحاول زيارتي أرجوك. إذا احتجتك، سأزورك أنا.

لم يودعه، إنما سار باتجاه البيت مسرعاً، هارباً من إلقاء الأسئلة على نفسه. عرقت جبهته، وعبثاً حاول تهدئة أفكاره. اضطرب رأسه مرة أخرى: «كميت مقبرة» ربما كان خليل على حق. ما الذي جعله يختار هذا المكان. سخر من نفسه وهمس «طز»، لقد أصبح السؤال مملاً. توقف للحظة قصيرة، ضرب حجراً صغيراً، استقر عند قدمه، ومع ارتفاع الحجر عن الأرض، صاح بصوت خدد جنبات الليل «ليكن ما يكون» حدق في السماء، تدلت النجوم مشعة أمام عينيه، فيما تلألأ القمر باكتماله. تحرك من مكانه وحث السير بذات السرعة التي بدأ بها، وكأنه مصر على الوصول إلى البيت لاغير، وفي ذهنه التمعت فكرة واحدة فقط «ترى ماذا تفعل ماجدة بالليالي البيضاء؟».

❖

كان زمناً صعباً لماجدة أيضاً عندما حل صالح في الناحية. كانت قد أكملت للتو سنتها التاسعة عشرة. ولو لم تكن أسقطتها معلمة الدين في الصف الرابع الابتدائي، لكانت الآن طالبة في الصف السادس الإعدادي، إذا ما استثنينا تلك «السنة المشؤومة»، كما تطلق عليها وهي على حق، سيما وأنه لم يحدث من قبل رسوب أحد الطلاب أو إحدى الطالبات بمادة الدين، لكونها ظلت درساً ثانوياً، ولكن معلمة الدين العوراء القبيحة حتى الشرر – الست فاطمة، لم تحبها يوماً بسبب جمالها وشطارتها غير العاديين– كما تصور هي، باستثناء تلك السنة، فإنها كانت تنجح وبتفوق في كل مراحل دراستها، عند صدرها التمعت دائماً ميدالية «فارسة الصف» كما أعفيت من الامتحان في مختلف المواد عند نهاية السنة. ولولا ما حدث هذا العام لما خطرت على بالها سنة رسوبها بالمرة، بعد أن كانت قد نسيتها تماماً. للمرة الأولى تمنت لو أنها كانت في الصف السادس الإعدادي، تدرس في مدينة قريبة، ولما التقت صالح، ودخلت معه في تفاصيل قصة، نهايتها متكهنة.

إذن لم يكن بالإمكان تجنب ذلك. لقد تعودت على ترويض حياتها، وألا تجعل نفسها تستسلم بسهولة. لكل شيء ثمنه. تضحك في سرها، عندما تهمس «ألم يكلفك جمالك سنة رسوب مثلاً» وحدها تسمع صوتها الساخر، لا تسمح لأحد بتوبيخها، وحتى لو سمعت تعليقاً لأحدهم «مغرورة»، فإنها تشيح بوجهها أكثر، كأنها تمنح تأييداً لكلامه، لم تقبل التنازل عن شيء يخصها وإن كان صغيراً، هي وحدها التي تقرر إذ كانت على صواب أم لا! عناد قديم، ربما انغرس فيها منذ الطفولة. إذ كان يكفيها مثلاً في الصف الرابع الذهاب إلى معلمة الدين العوراء باكية، لكنها رفضت بعناد رغم إلحاح أمها، مما جعل أباها ينصح الأم بالكف عن الطلب منها، الست فاطمة خبرت عنادها. لم تجد غير ضحكة تتندر بها عندما رأت أمها تأتيها دون ابنتها، مضيفةً جملة مليئة بالاستهزاء:

– لم تأت معك المحروسة. أعرف عنادها، تستحق الرسوب أولا لضعفها في درس الدين وثانياً لسخريتها منه، ثانياً عليها أن تتلقن درساً، لكي تتخلص من عنادها.

على العكس، فقد ضاعف ما حصل عنادها. كلما كبرت، كلما تعمق وعيها بما تفعله، مقتنعة أكثر من السابق بصواب فكرتها. لا سيما عندما تحدق بالمرآة. تعرف أي سر يحمله جسدها، لقد اكتشفت تميز جسمها منذ وقت مبكر. مبكراً أيضا نما ثدياها ببروز مثير. ففي الثانية عشرة من عمرها بدأت تلبس السوتيان، وقبلها بسنة شق شعر عانتها طريقه، مغطياً الشق الذي كان يثير الفضول في داخلها. هكذا عرفت عن تشريح تلك المنطقة أكثر مما باحت به دروس البيولوچيا الفقيرة بمعلوماتها، وتجرأت ذات مرة على حلاقته، لأن إحدى بنات عمتها أشارت عليها بأنها الطريقة الوحيدة التي تجعله ينمو بسرعة. وأمها التي فتحت باب الحمام عليها ذات مرة لتعطلها هناك، صرخت لاطمة خديها لدهشتها، عندما لمحته خالياً من الشعر. سحبتها من الحمام إلى الغرفة، لتأخذ في ضربها مؤنبة إياها. لم ترهبها أمها، حتى أنها لم تجد ضغينة من الوقوف في وجهها:

– أنت تفعلين ذلك أكثر من مرة في السنة.

لم ينفع الأم ضرب اليد في الأخرى.

اعتادت ماجدة تلك الجرأة منذ طفولتها، ما جعلها ترفض لبس العباءة عندما اقترح عمها على أبيها متحججاً أنها كبرت، ويجب عليها الاحتشام. استطاعت مع أخيها رعد تدبير حجة لأبيها منطقية جداً، إذ طالما أن العباءة تكلف أعباء مالية، فإن العائلة في غنى عن المصاريف الجديدة. كان من السهل إقناع عبد الحميد العطار الذي يفكر بدقة قبل صرف أي فلس. لقد

عرفت ماجدة مبكراً الجانب الضعيف عند أبيها. يلين إذا ما علق الأمر بفوائد مالية له. هذا ماحدث أيضاً، عندما رغب ابن عمها - سيموت في الحرب التي ستنشب- الزواج منها، إذ في الحقيقة لم يفرح أبوها للفكرة، إنما استحسنها تحت تأثير أمها التي تحججت بخوفها من نمو ماجدة المبكر وجرأتها، مفضلة التخلص منها بوسيلة ما مناسبة. لكن ماجدة أقنعت والدها بخطأ تزويجها الآن، فمن غير الصحيح أن يستلم ابن عمها وعمها، اللذان لم يصرفا عليها قرشاً واحداً في حياتها، المال الذي ستكسبه بعد إنهاء دراستها الطب كما اعتقدت. إن وقوف رعد بجانبها ساعدها في النجاح في تدبير مسائلها.

كانت علاقة الأخوين خاصة جداً، منذ صغرهما تعاهدا أن يقف أحدهما مع الآخر. فكرا في الأمر بحس طفولي. الغريب أنهما لم يتنافسا طوال سني الطفولة فيما بينها، لم يغر أحدهما من الآخر. إنما اتفقا أن يساعد أحدهما الآخر، أن يكونا صديقين. وكما يفعل الأطفال الآخرون عندما يتعاهدون على شيء أخذا ذات مساء قصبة صغيرة وكسراها عند باب دارهما مرددين «نكسر سيف العباس»، ومنذ قسمهما ذلك لم ينقطعا عن إعانة أحدهما الآخر كلما أصبحا في مأزق. وللمرة الأولى ذلك العام وجدت ماجدة نفسها وحيدة دون إعانة رعد. إن معرفتها باضطرار رعد للاختفاء تعذبها. صحيح أنها لاتعرف بالضبط أسبابه، إلا أنها اقتنعت بما يقوله. ففي الليلة التي اختفى فيها حدست أن أمراً غريبا سيجري. لقد نام أهلهما جميعاً. وكان رعد قد جاء إلى زيارتهم من الجامعة، ونام في الفراش القريب من فراشها. شرب للتو ربعاً من العرق. وقبل أن ينام جلس قريباً منها، بدأ يحدثها - لم تفهم كل ما قاله، إلا أنها شعرت بما يحزنه- من طرفها كانت مستعدة للتضحية بكل شيء من أجله. تعرف كم تحبه. للمرة الأولى أيضاً تحسست أنه يحتاج إلى مساعدتها أكثر من أي وقت مضى، ليس كما يحدث

دائماً، إذ هي التي توسلت تضامنه دائماً. فرحت بحزن رغم اضطرابها الواضح والمتناقض. لا تدري بأي وسيلة يمكنها مساعدته. بكت بحرقة عندما رأته يبكي للمرة الأولى مخفياً رأسه بين ثدييها:

- ماجدة لا أريد أن أموت.

الأمر الوحيد الذي فعلته، هو أنها أخذت تداعب شعره بحنان ضامة رأسه إلى صدرها أكثر، محاولة استخراج كلمات مواساة من داخلها. ليس من اليسير عليها قول شيء له. صحيح أنها تعرف نشاطه السياسي وبعضاً من حياته، تعرف عناده هو الآخر.، لكنها لاتفهم إصراره على الاختفاء،. ولا تستطيع تبريره من باب العناد فقط، لأن اللعبة بدت لها خطرة أكثر مما يجب. وإذا ما دارت هذه التساؤلات في ذهنها فإنها تبقيها هناك. لم تحاول سؤاله، تخاف أن تجرحه، بدلاً من ذلك راحت تفكر بما يقلقه، غير ناسية أن يساعدها ولو بجملة واحدة «كيف»؟ لكنه لم يفعل، إنما شرع يضغط برأسه أكثر مخرجاً جملاً متقطعة، وما فهمته فقط، أنه سيرحل غداً، وربما لن يراها لزمن طويل. لم تسأله إلى أين؟ لماذا؟ لاتدري! رغم العلاقة الحميمة التي تربطهما، إلا أنها شعرت أنه يريد هذه المرة الاحتفاظ بالسر له وحده. ارتكنت تلك الليلة إلى أسئلتها التي بقيت تطن في رأسها وإلى حزنها العميق. عبثاً حاولت النوم، فقد ظلت تتقلب، تعذبها فكرة فقدانه هذه المرة وإلى الأبد. بكت بحرقة. وبهذا الشعور ودعته في الصباح في محطة السيارات وعندما رجعت إلى البيت كذبت على أمها التي سألتها:

- تعرفين متى يرجع؟

- بعد مدة قصيرة.

ذلك اليوم عرفت الاعتماد على نفسها فقط. ليس حدسها الذي يقول

لها ذلك، إنما حالة رعد في وداعه الأخير، الذي اختلف هذه المرة.

لقد لاحظت هي أيضاً منذ رجوعها من محطة السيارات، أنها قد تغيرت بعض الشيء. هل لأنها اعتادت على غيابه، إذ منذ ما يقارب السنة وهو لايزورهم إلا بصورة متقطعة، الخميس والجمعة في الغالب وعلى فترات متباعدة تصل إلى غاية الثلاثة أشهر، حتى أن جيرانهم وزملاء أبيها في الشغل اعتادوا على نعته بكنية «أبو ماجدة» لأنهم لم يروا رعد على الإطلاق.

لم تزعج أباها التسمية مطلقاً، فالموظف عبد الحميد العطار المنقول قبل ثلاث سنوات إلى كميت، والذي لم يشأ أن يطلع أحد على نشاط ابنه السياسي حتى رعد عندما سمع بحكاية الكنية فرح، ربما لتفكيره بكميت كملجأ محتمل. أما هي فقد استمعت إلى القضية دون الدخول في تفاصيلها. إذ باستثناء تعاطفها السطحي مع أخيها الذي جعلها غير متطامنة، فلم تثرها شكوك أخرى. كان كل شيء يجري أمامها بروتينية، بحيث أنها لم تؤخذ بالمفاجأة إلا قبل وداعه بقليل. كانت غير قادرة على منع نفسها من التفكير أن ما يحدث يفوق تصوراتها. فمنذ سنين وأثناء زيارات رعد الشحيحة، دارت أحاديثهم مركزة على الأمور العائلية بالإضافة إلى أخبار حياته الجامعية، صحيح أنها تسمع بعض الأحيان كلمات ضد السلطة من فمه، إلا أنها لم تدخل في تفاصيلها. تعرف أنه ضد السلطة وأنها تتعاطف مع ما يقوله. وإذا ما كانت تسمع شتائمه الخطرة غالباً في بغداد، فإنها لم تنتبه إليها تماماً، لأنها في أوقات كثيرة تكون منشغلة بأمور أخرى، ربما تبحث عن محطة مونت كارلو أو تسخن الشاي مدندنة أغنية لعبد الحليم أو فيروز، أو تتصفح مجلة البوردة. لقد أدركت هي نفسها ومنذ وقت غير قصير، أن شيئاً ما ليس على مايرام بين الأخوين وأن ثمة تبدلاً في عالمها. لقد فقدت تلك الحميمية القديمة بعضاً من بريقها، من قوتها. صحيح أنها مازالت تحبه، إلا أنها

لاحظت ذلك اليوم عندما رجعت من محطة السيارات أنها لم تتهيأ لوداعه، بل لم تفكر مطلقاً بأنها ربما لن تراه بعد، أو أن ثمة أمراً مخيفاً سيحدث، إذ أنها عاشت طوال فترة غيابه الجامعية بشكل طبيعي، لم تقلق لتأخر زياراته، كما لم تحملها أخبار الاعتقالات التي يتحدث أبوها عنها بعض المرات، أو تلك التي رأتها في المدرسة، عندما اعتقلوا بعض المدرسين، على الخوف على رعد. حتى وإن فكرت بذلك فبشكل سطحي، وكأنها وضعته إلى جانب، في ركن صغير من ذاكرتها، كأنه يكفي عدم التفكير به للاحتفاظ به حياً دون ملاحقة أو اعتقال، لماذا؟ ربما لاعتقادها بذكائه الذي سينجيه من كل ماهو شرير، حتى عندما تسمع قلق أمها، تردها دون إخفاء استغرابها. كانت تفعل ذلك لا لأنها تريد طمأنة أمها فقط، إنما بقناعة. كانت مرتاحة لتعليلاتها، حتى حدث ما حدث. في الحقيقة أنها لم تتخلص من الشكوك التي أثارها رعد فيها، حتى أنها فكرت أنه ربما يبالغ. لكنها تلك الليلة استعادت وبسرعة حميميتها الطفولية وصدقت كل شيء يقوله، حتى المبهم منه، رغم ندمها اللاحق لعدم إلحاحها عليه في الاستفسار منه عن تفاصيل كثيرة. في ذلك اليوم فكرت ربما أنها ساذجة. أرعبها هذا الاكتشاف. ظلت يومين دون أكل. لقد فقدت الشهية، رغم إلحاح أمها في معرفة السبب، فإنها لم تشأ البوح في الحقيقة، لقد أرادت الاحتفاظ بها، لها، لوحدها.

تلك الأيام، كانت مرت أكثر من سنة على انتقال عائلة عبد الحميد إلى ناحية كميت. تلك الفترة التي بدت لماجدة طويلة، كانت لاتزال طرية بالنسبة لعبد الحميد. إذ أنه لم يكف عن إعلانه في كل مناسبة عن ضرورة تعرفهم على الوضع الجديد. لم يستسلم ببساطة لقبول دراسة ماجدة في مدرسة مختلطة، ولو لا عنادها، ربما لما رضخ. إذ قالت له عندما حاول إرسالها إلى إحدى مدارس المحافظة الخاصة بالبنات فقط، والتي تبعد ثلاثين

كيلومترا، بأنها ستذهب تشكوه عند مدير التربية، وعبد الحميد الذي يخاف من الدوائر الرسمية أكثر مما يخاف من الله، أذعن في النهاية رغم مماطلته لها أسبوعاً كاملاً، لخوفه وأيضا بسبب اقتناعه بما قاله له أحد زملائه، الذي ذكره بأنه من المضحك له القادم من العاصمة أن يعيب على ابنته دخول مدرسة مختلطة في الوقت الذي يقبل فيه القرويون الذين يعيشون عند أطراف الناحية. أما هي فقد أفرحها الوضع الجديد بنفس القدر الذي أحرجها، إذ كانت تحلم بمدرسة مختلطة منذ أن كانت في بغداد، ومنذ مغادرتها المدرسة الابتدائية. لا تعرف لماذا يسمح في المدن الكبيرة بالاختلاط في الكثير من المدارس الابتدائية ولافي المراحل التي تتبعها. حين سألت أباها ذات مرة، أجابها: «حفاظاً على الشرف بنتي» «عندما استفسرت منه عن كلمة «شرف»، أجابها وقد زم حاجبيه:

- بعدك صغيرة. السؤال عن الشرف عيب، بنتي!

فعلقت بمنطقها الطفولي:

- يعني الصغار ماعندهم شرف؟

لقد وعت أموراً كثيرة بوقت لاحق، ولكن ما يعنونه بكلمة «شرف» ظل غامضاً بالنسبة إليها. حتى أنها سألت رعد عن رأيه، فأجابها ساخراً

- الشرف سر اخترعه العرب ليحفظوا به أنفسهم كنوع خاص غير قابل للانقراض.

لم تفهم. اكتفت بضحكة عالية. وذات مرة لاتدري أين قرأت «أن شرف المرأة في غشاء بكارتها» فتساءلت و«أين يكون شرف الرجل؟» لقد قرأت تلك الجملة قبل سفر رعد بأيام، قبل سفره بالذات، وكانت قد فكرت بالبوح له بما تفكر به عندما يلتقيان، ولكن ما حصل لم يجعل الفرصة سانحة للحديث عن الموضوع، فقد جاء رعد وذهب بسرعة تاركاً خلفه

حزناً غير عادي.

لقد مر وقت طويل على وداعها له، وطوال هذه الفترة بدا كما لو أنها نسيت غيابه تماماً. انغمرت في دراستها– وكأن الشيء الوحيد الذي يشغلها هو إكمال السنة الأخيرة، فقط أقبلت على الدراسة بحماس، لأن ذهنها كان منصباً على مغادرة الناحية بسرعة. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، والذي قلب كل المشاريع على عقب. لاتدري بالضبط متى، كل ما تعرفه، أنه كان يوماً ربيعياً عندما جاء أبوها من شغله، وقد بدا متحمساً على غير عادته، فرحاً بصورة مبالغة. ظنت من طرفها، أنهم ربما رقوه في وظيفته، فقد واظب على مناداتها بـ«مجودة» مضيفاً تعليقات ساخرة هنا وهناك لاينسى قرصها من خدها أو التربيت على كتفها، كما كان يفعل معها عندما كانت طفلة. حتى ذلك الحين لم ترتب ماجدة بحكايته التي بدت لأمها أيضاً غريبة، والتي بعد أن ضحكت، واضعة يدها على فمها كعاداتها عندما تضحك، ثم لتفتح فمها دون أن تكف عن الابتسام، لتعلن بصوت ربما بدا له غير مريح، إذ سحب يده من كتف ماجدة وعدل من جلسته، ليعلن عن وجه جاد عندما سمعها تقول:

– أبو رعد فرغ جعبتك!

في تلك اللحظة بالذات شعرت ماجدة أن ثمة أمراً غير عادي يكتمه، ولم تستطع الذهاب بأفكارها بعيداً، إذ امتدت يده هذه المرة تداعب شعرها الذي ألقته فوق كتفيها، فيما اتجهت نظراته صوب أمها:

– طلب يدها عصام ماهود.

وماجدة التي ارتدت قليلاً إلى الوراء عندما سمعت الخبر الذي ألقاه أبوها بحيادية، والذي نزل عليها كالصاعقة، فيما غادر الدم وجهها وبدت

كبرتقالة ذابلة، أرادت فتح فمها، إلا أنه انغلق وحده وكأنه كف عن الحركة. لم ترتعش رجلاها فقط، إنما غزتها رغبة قوية في التبول. لم تنهض لتتبول. شعرت بقوة وهمية تشدها إلى مكانها، كمن سمرت هناك. وكأنها فقدت وعيها. دفعت يد أبيها التي انغرزت قبل قليل في شعرها، عاينت بطرف خفي أمها، التي كانت هي الأخرى تعاينها بسرية. كانت على يقين أنها ليست راضية، إذ تقلصت ملامح وجهها مثيرة شكوكاً واضحة. من لايعرف بيت ماهود في الناحية؟ أمها بالذات لاتكن لهم عاطفة خاصة، إذ سمعتها مرة تقول لرعد محذرة إياه– هذه المرة عضت على شفتيها مجدداً، لأنها لم تسأل أمها عن السبب آنذاك – الذي بدا منفعلاً قبل أحد سفراته: «يمة ماهود هم الأمن والشرطة والحزب». تضطرب ماجدة. وإذ تضغط عليها الحاجة في التبول، تثقل عليها الرغبة في سؤال أمها الآن، إلا أن هناك ما يلجم لسانها. قوة تخنق صوتها، مثل تلك القوة التي تحملها على رد بولها الضاغط إلى المثانة لتحتفظ به.

كانت ماجدة قد أُخذت بالمفاجأة، وهي خائفة من صمتها، لا سيما عند تطلعها إلى أبيها الذي لم تغادر وجهه ابتسامة انتهازية، وكأنه لم يخمن معارضتها إطلاقاً، وبقدر ما يضغط عليها بولها، تضغط عليها شرايين الرأس التي انفتحت مثل صمامات ضخمة في الأوردة والشرايين، فيما راحت يداها تداعبان أطراف ثوبها، ولفترة غير قصيرة صرخ الصمت في المكان والذي قطعه عبد الحميد وهو يوجه الكلام إلى أمها:

– أعتقد لامانع عندك.

لم تجب أمها بشيء إنما حدقت بماجدة، أمسكتها من يدها وهزتها:

– بنتي، سمعت كلام والدك. القرار يبقى قرارك.

أراد الأب أن يعترض، فأشارت له الأم أن يسكت:

- ماجدة وحدها تقرر.

ودت ماجدة من صميمها أن تنهض وتقبلها، لكنها القوة ذاتها التي تشدها إلى المكان، إذ عندما تحدق بأبيها يلين عنادها بعض الشيء، تغتاظ من نفسها، فتبحث في دواخلها عن بقايا العناد القديم التي لم تخفه حتى في حضرته. هل تخافه هذه المرة أكثر؟ أم هناك ماهو أكبر من خوفها؟ هل غياب رعد جعلها ضعيفة؟ أم خوفها من تعدي العشرين دون تقدم أحد إلى خطبتها على الأقل؟ هل تبحث عن دليل لأنوثتها عن طريق هذه الدعوة؟ لماذا تسكت؟ هل أصبحت خرساء؟ بل ما الذي يمنعها من النهوض والذهاب إلى المرحاض للتبول أولاً؟ وإذا ما تزاحمت هذه الأسئلة في مخها، فبسبب محاولتها كبح سؤال واحد: ترى هل هي تخاف هذا الـ «عصام ماهود»؟.

منذ مجيئهم إلى كميت، وهي تلاحظ هذا الرجل الذي يستبدل بدلاته كل يوم، يلاحقها. لم تستطع تجنبه. كان يتبعها في سيارته المرسيدس S ٢٨٠، كالظل الذي تصنعه النخلات المنتشرة في طريقها المؤدي إلى المدرسة. صحيح أنه رأها صدفة، إلا أنه منذ أن وقعت عليها عيناه لم يكف عن ملاحقته لها: في الثامنة إلا الربع، عندما يكون دوامها صباحاً وفي الثانية عشرة عندما يكون دوامهم عصراً. إضافة إلى تغيير ملابسه يومياً، واظب على اختيار أزرار سترته بعناية، إذ كانت تلمح بريقها إذا مر بها في سيارته، تلمع تحت أشعة النهار، مضيفة عليها أناقة فائقة. كان من الصعب عليها تجنب رائحة العطر الذي يأتيها، إذا ماحاذاها بسيارته، وكلمها من نافذة سيارته المفتوحة وإذا ما وجد الشارع خالياً، نزل من سيارته ليلاحقها. كان يضع أقوى العطور وأفخرها، والتي تجعلها تسرح في بعض الأحيان، إضافة إلى كل ذلك، كان عصام ماهود يثير الفضول، بوجهه

الدائري الذي لايخفي أنوثة ما، تبرز بالذات عند زاوية العينين العسليتين، وعند الحاجبين الذين بدوا دائماً وكأنهما قد حفا للتو، وفي الشفتين العريضتين ذاتي الخطوط المستقيمة، فيما بدا شعره السرح المتلون بشقرة بسيطة مشعاً بتوافق مع أزرار سترته. وفي الحقيقة إذ انزعجت في الأيام الأولى، فلأنها فوجئت بملاحقته لها. وإذ اكتفى في الأول بملاحقته لها دون منحها الانطباع بمتابعته لها، فإنه بعد أسبوع شرع يحاول لفت نظرها بكل الوسائل، ففي الوقت الذي كان يرصدها من الخلف، أخذ يأتيها هذه المرة من الأمام، أو أخذ ينزل من سيارته بعض المرات ليواجهها وجهاً لوجه، ملقياً بابتسامة لها. كانت هي تحاول المرور به دون منحه الانطباع أنها حتى تتنبه إلى وجوده. لكنها تبدلت بعد أسابيع.

بالتدريج راحت ملاحقاته تبث بها متعة سرية. أصبحت كل يوم عندما تخرج من المدرسة تراهن مع نفسها بأنه ينتظرها عند زاوية الشارع. بإمكانها توقيت ساعتها: الثامنة إلا ربعاً صباحاً، الثانية عشرة ظهراً. لا تدري لماذا لايقف عند مغادرتها المدرسة، هل يخاف أن يراه أحد؟ لم يشغلها ذلك السؤال دائماً. إذ يكفيها أنه يقف هناك منتظراً مرورها عند الذهاب. استمتعت مع مرور الأيام بهذه المغامرة الصغيرة التي بدت كبيرة قياساً لما يحدث في هذه المدينة الصغيرة الكئيبة.

كان بإمكانها أن تفعل أشياء كثيرة في بغداد. صحيح أنها اعتادت على ملاحقات متعددة في أوقات الذهاب إلى المدرسة أو مغادرتها.، إلا أنها كانت من نمط آخر. كان الملاحقون في مثل سنها، تكويهم ذات الرغبة التي تحرقها. كان لها بعض العلاقات، إذا جازت التسمية. في مرات متفاوتة كانت تذهب مع صديقها إلى بيت أهله وقت الظهيرة، حيث تغرق العوائل في نوم القيلولة في نهارات الصيف الطويلة والحارة، تسلم جسدها إليه بعد أن يكون

قد قرأ لها بعض القصائد، يداعبان بعضهما: هو مكتفياً بخلع قميصه، وهي مزيحة ثوبها حتى الخصر، فاتحة صدرها، مطبقة على فخذيها، مستمرين على هذا الوضع دون السماح بالتعري تماماً، واصلين إلى اللذة القصوى كل على طريقته. ولكن سيان ما كان يجري، فإن الأمر يختلف هذه المرة، إذ لاحظت منذ اليوم الأول، أن هذا الرجل يكبرها بكثير، وأن هناك ما يجعلها لاتستسلم له لتذهب معه في ساعات القيلولة، إلى قصره عندما عرفت أنه هو من تتحدث عنه الناحية «عصام ماهود»، وهذا ما باحت به لها إحدى زميلاتها التي التقت بها صدفة عند ذهابها إلى المدرسة، والتي سألتها بسذاجة:

– تعرفين سبب تتبع عصام ماهود؟

فردت عليها متعجبة:

– هذا هو عصام ماهود؟

فعلقت الزميلة باندهاش:

– يعني ما كنت تعرفينه؟

لم تعلق تباعاً، إنما استمرت وكأن الأمر لا يعنيها. إنه أكبر سناً منها. لم تخف على عذريتها بمثل تلك القوة من قبل. لم تشعر مع أصدقاء سنها بهذا القلق إذا ما اختلت معهم. كانت هناك حيل المراهقين الذين يحاولون تقليد الكبار دون معرفة تفاصيل كثيرة. وإذا ما استحوذت عليهم الرغبة فإنهم يقبلون بعضهم بعضاً، يتحدثون أحاديث خرافية، لايسكتهم سوى اشتعال النار في شرايينهم وفي تلك اللحظات بالذات تمتد أيديهم لتنض ملابس بعضهم بوجل، ولكن لاتتعدى حدود اللباس الداخلي، يداعبون بعضهم تاركين قطعة القماش في مكانها، كما لو كان يعوزهم البرهان على تأكيد عذريتهم. لا تدري لماذا تذكر كل تلك المداعبات، عندما ترى عصام ماهود. هل لأنه صرح لها ذات مرة:

– أنت امرأة جميلة، بل أجمل امرأة في العالم:

في ذلك اليوم، لاتدري لماذا فكرت في عذريتها وللمرة الأولى غادرت مدرستها مبكراً، قالت لمدير المدرسة إنها مريضة، كانت الساعة الثالثة عصراً عندما رجعت إلى البيت. لم يلاحظ أحد، لأن والديها كانا ينامان القيلولة. صعدت إلى غرفتها في أعلى الدار، ألقت كتبها بسرعة، وأغلقت الغرفة بالمفتاح، جلست في الأول على حافة السرير ثم نهضت وكأنها فوجئت بأمر غريب. اتجهت إلى المرآة التي انتصبت أمامها. وإذ بدا وجهها شاحباً بعض الشيء فإن الخصلات التي نزلت بدلال على وجهها أبقت تلك الطفولة الخفية فيها. تطن الجملة «أنت امرأة جميلة. بل أجمل امرأة في العالم» في رأسها. تضطرب. بسرعة تبدأ بإلقاء ملابسها، بعيداً، قطعة قطعة، تلقيها بحرية إلى السرير ليس كما كانت تفعل في بغداد، حيث كان عليها أن تحتاط من دخول رعد المفاجئ الذي كان يقاسمها الغرفة. هذه المرة تستطيع ممارسة طقسها بحرية، فالآن تستطيع الوقوف ما تشاء أمام المرآة. كانت مثل نخلة صغيرة. بعمق راحت تتأمل جسدها العاري وكأنها تبحث في تفاصيله عن تلك المرأة، بل شرعت يدها في البحث عنها في كل مسامات جسدها. كانت تمررها فوق جلدها الأسمر الناعم، هي العارفة خريطة جسدها جيداً. «بل أجمل امرأة في العالم»، لقد أشعلت الجملة الفتيل، تلمس يدها النهدين المكورين كقبرتين مادتين منخريهما إلى الخارج، وتنزل إلى أسفل الفخذين، ليمتد أحد أصابعها للمس الغشاء هناك، إذن مازال في مكانه. كل شيء على مايرام. هل شكت في كونها عذراء؟ تتوتر، وتبدأ بالإثقال، تفصح عن رغبتها بإفراغ حمولة لاتطيقها، ويسرح ذهنها بعيداً، ويفرغ رأسها من كل تصور. لم تتمن رجلاً معيناً، لقد امتلأ رأسها فقط بجسدها الذي أخذ يلح عليها بأنينه، حتى أنها لم تستطع

البقاء أمام المرآة، فتسرع لتلقي بنفسها فوق السرير، بعد لحظات وتغفو الدقائق لتستيقظ بعدها شاعرة برطوبة بين فخذيها، كما لو كانت قد خرجت للتو من الحمام، وبدا جسمها غير متشنج، فيما انبعثت رائحة جميلة في الغرفة، تذكرها برائحة جسدها.

ظلت تلك الظهيرة عالقة في ذهنها، كرائحة البخور التي أشعلتها بعد نهوضها. في ذلك اليوم قررت تغيير تسريحة شعرها وشراء عطر جديد. فعلت ذلك بفرح، وتجولت في المدينة، وكأنه تجول في الناحية للمرة الأولى. لم تكتف بشراء عطرها المفضل «كاشية» اشترت أيضاً ملابس داخلية مع قميص نوم من الحرير الأبيض. وفي تلك الليلة نامت، كأنها تركت يوماً عظيماً خلفها. نامت في قميص النوم الجديد. في تلك الليلة لم تحلم، إنما نامت فقط، وفي رأسها نامت أيضاً تلك الجملة التي ربما هي أساس كل المصائب اللاحقة «أنت امرأة جميلة، بل أجمل امرأة في العالم». هل شكها في تلك الجملة، حملها أن تقول له في اليوم التالي، عندما نزل من سيارته ليلحقها، مكرراً الجملة ذاتها:

– إذا كنت جاداً اطلبني من أهلي!

وإذ اعتقدت أنها فأجاته، فإنها كانت على خطأ إذ ابتسم هو لها هازاً رأسه لها بالإيجاب. بالفعل لم ينس جملتها، لقد فعل في الأخير ما اقترحته. الآن عليها هي أن تقرر. بدا لها الوضع كنكتة سمجة، فهي لم تعتقد أنه سينفذ ما قالته وبهذه السرعة لقد ألقت جملتها آنذاك بحيادية، كما تلقي بتحية صباح الخير، أو ربما ألقتها للتأكد من صحة شكوكها لجملته، أو البحث عن تأييد بأنها «امرأة حميلة، بل أجمل امرأة في العالم». تكتظ مثانتها بالبول. تمنت لو تنشق الأرض تحتها لتبول هناك، كما تفعل القروية القادمة إلى المدينة، التي تنشر عباءتها حولها، ساحبة لباسها الداخلي – إن

وجد – إلى الأسفل، لتبول بحرية أمام المارة. ولكن الشارع الذي أرضه ترابية يبتلع البولة التي تركن في مكانها، ومثلما عليها التبول الآن، عليها إجابة أبيها. ماذا تقول؟ وهي التي تعرف كل ما قيل عن عصام ماهود. حتى الأمس سمعت من زميلاتها عن علاقته بحسيبة العاهرة التي قدمت قبل فترة قريبة مع عاهرات أخريات وسكنّ عند أطراف كميت بتسهيلات من عصام ماهود. كما أنها لا تستطيع نسيان جملة أمها «عصام ماهود هو الدولة» وتلك الأيام خافت من مطاردته لها بنفس القدر الذي أفرحتها. كان إعجابها به ممزوجاً بقلق، ربما نتيجة لخوفها فقدان عنادها. وإذا ما سمعت عن قوة هذا الرجل في الناحية فإنها لم تخف رغبتها بترويضه. كم تمنت وجود رعد في تلك اللحظة، ربما ساعدها على اتخاذ القرار، خاصة عندما سمعت أمها تقول:

– فكري بالقضية، بمستقبلك بنتي.

إذن عليها أن تقرر، هي التي لم تفاجأ بالسؤال فقط، إنما فوجئت بمطالبها أيضاً. كانت رغبتها. كلا ليست رغبتها، إنما كانت لعبتها، جملتها، أو مطلبها،. ما الذي حدث، هل فقدت موهبة تعريف الأشياء؟ أم أنها فقدت الحماس في التعليق؟ ،ولا تريد الدخول في التفاصيل؟ هل تريد أن تعيش حياتها كما قرروا لها؟ وإذا رفضت ماذا سيحدث؟ جميل. ستعلن الحرب بينها وبين عصام ماهود. ولكن إذا قبلت ستعلن الحرب أيضاً، فهي يقيناً لن تتخلى عن عنادها.

وبقدر ما تضغط مثانتها ملحة بإفراغ بولها، يلح أبوها بالسؤال، كانت على شفا أن تقول لا، عندما تذكرت فجأة شهر زاد التي قبلت الرهان مع نفسها، ودخلت في حرب سرية مع شهريار. هدأت لبرهة، ثم ألقت جملتها

التي فاجأت أمها التي حدقت بها باستغراب كأنها لاتريد تصديق ما سمعته

- زين. اعتبروني موافقة.

هي الأخرى ألقت بحجرها - كما قال لها صالح تباعاً- كانت ماجدة مغلقة بالفضول للقبول بدورها كامرأة. لكنها لم تعرف تلك الظهيرة أن الخطوبة تضمن واجبات كثيرة. وإذا ما فكرت أنها تحب عصام ماهود، اعتقدت أن حبها نتيجة كرهها له، وإذا ما فكرت بطرده من حياتها، اعتقدت أنها تكرهه لأنها بدأت تحبه، حتى أصبحت لياليها عذاباً.

منذ البداية حاولت اختبار قوة عصام ماهود، فاشترطت عليه عدم الاحتفال بالخطبة وتأجيله مع حفلة العرس. لم يرفض. وعندما اقترح إيصالها في سيارة إلى المدرسة، أعلنت له أنها تفضل السير على الأقدام. وكثيراً ما كانت تقاطع أحاديثه التي لم تزد غير نفورها منه، فهي لم تكن معنية بتبجحاته وهمومه المتعلقة بسلطته لا غير. لم يغتظ منها في البداية، مما حملها على الاعتقاد أنها قادرة على ترويضه بالفعل.

لم يدم ذلك الشعور مدة طويلة، إذ اكتشفت تباعاً، أنها لا تتعامل مع حصان، إنما مع ثعلب، وترويض ثعلب ليس كترويض حصان. ألم ينكر في البداية علاقته بالعاهرة حسيبة. كما أنه من صنف الرجال الذين لا يدخلون معركة دون التفكير بربحها فقط. وهو كما صرح لها ذات مرة، لم يخسر أية معركة في حياته، لقد ربحها كلها، وإذا عرف أنه لن يربح ينسحب ليعاود الكرة ثانية، المهم ألا يخسر، كما ليس في نيته السماح لأحد بالتفوق عليه، وليذهب العالم إلى الجحيم. لهذا السبب فإنه لم يعد يستسلم لرغباتها كما فعل في الأيام الأولى. حتى أصبحت علاقتهما مثل علاقة القط والفأر. ولكن ماجدة العنيدة أيضاً وجدت في أخته سامية مفتاح الدخول إلى

شخصيته، وكانت تشترط وجودها دائماً في كل لقاء يقترحه. كانت سامية تعاني في تلك الفترة من عزلة كبيرة في المدينة، إذ حمل سلوكها المتعالي والمتهور الكثير من النساء يرفضن الحديث معها، بالإضافة إلى تكاثر الإشاعات عن علاقتها بمدير الشرطة، حتى قيل إنهما يلتقيان في بيت الحاج عبد الحسين الدلال. وماجدة لم تكذب من طرفها هذه الشائعات، حتى وإن استنكرتها أمام سامية، بل على العكس كانت تحاول تثبيتها وكأنها تريد استخدامها كسلاح في يدها. كانت تقود علاقتها كمعركة - كما قال لها صالح تباعاً - دون أن تدري، أو ربما بوعي وإتقان. لقد كان بإمكانها معرفة الكثير عن عصام ماهود عن طريق سامية. هكذا عرفت مثلاً أن عصام ماهود، الذي يحرك الناحية كلها بإصبعه، ضعيف أمام النساء. لقد نام مع الكثير من النساء اللواتي دفع لهن المال والهدايا، ولكنه لم يعتقد بكلمات الحب التي قالتها. لم ينجح في الفوز بقلب امرأة من قبل، «أنت الأولى» تقول لها سامية. في مرات أخرى كان يشك ويعتقد أنه ربما يحمل ملامح أنثوية أكثر مما يجب. فعندما كان طفلاً، كان الأطفال يجعلونه دائماً العروس في لعبة العروس والعريس. لقد نفى كل رفاق طفولته من الناحية، إن لم يلق ببعضهم في أقبية التعذيب، في قصر النهاية، سجن رقم واحد، أو مديرية المخابرات.

لقد حدثت سامية ماجدة أيضاً عن علاقة عصام ماهود المتوترة بـ أمه. آنذاك كانت الأم تحاول التقرب دائماً من ابنها، ولكن هو الذي تربى بين جده الذي علمه أن يكون ضد أمه دائماً. فقد حرّضه على رفضها والاستخفاف بها، على أساس أنها لطخة في العائلة بسبب «أصلها الإيراني»، ويجب إزالتها ذات يوم. لذلك كان من الصعب لأمه التقرب منه، إذ بغض النظر عن احتفاظ الجد به دائماً، كانت تجد صعوبة في الحصول على ود صغيرها، الذي لم يرها سوى نفوره. كان لها كبرياؤها أيضاً، مما جعلها لا

تحتمل الوضع طويلاً، إذ بعد معارك الجد معها، والتي كان والد عصام مزبان ماهود فيها حيادياً، أو بدا على الأقل هكذا، وجدت نفسها وبعد زمن طويل من التحمل عانته في الانعزال وحدها في غرفتها والبكاء فيها، مضطرة لمغادرة الدار. لقد بحثت عبثاً عن مكان لها وسط العائلة، التي كانت مهتمة بالبحث عن امرأة جديدة لمزبان. ومزبان الذي بدا حائراً في الأيام الأولى، وجد في ذهابها إزاحة عبء ثقيل. اختفت زينب ولا يدري أحد إلى أين؟ بالرغم مما أشاعه ماهود، أنها ذهبت إلى أهلها في إيران ملبية نداء دمها. ولكن الكثير من أهالي الناحية يؤكدون أنها مازالت في كميت، وإن ابتعدت فإنها لا تتعدى الذهاب إلى النواحي القريبة طلباً للعيش. روى بعضهم أنه رآها تحوم في الليل بعباءتها حول بيت ماهود، وفي منتصف الليل هي من يشعل الأضواء في بيت عبد الحسين الدلال الذي سفر إلى إيران. لم يخف عصام رعبه من منظر أية امرأة تقترب من بيتهم بعباءتها، وخاصة عندما يكون سكران. لقد روى لأخته، أنه رآها أكثر من مرة تخرج له ثديها صارخة به: «هل كان حليبي فاسداً؟» ثم لتستل خنجراً وتهدده به.

كانت سامية لاتصدق هذه الحكايات، فلفترة قريبة ولغاية موت أبيها – في حادث تبادل إطلاق النار مع مهربي الشاي إلى إيران، كان بإمكانه تفادي الحادث، لكنه هو الذي أصر على مطاردتهم– ثم هروب زوجته مع أحد المهربين الكبار، لم تجرؤ على البوح بشكوكها في تلك القصص علناً، فقد كانت فاطمة زوجة أبيها تصر على أن زينب ماتزال في كميت، محاولة مع بعض بقايا العوائل ذات الأصل الإيراني تدبير محاولة لقتل مزبان وابنه. كانت تلقي الإشاعات وبحماس كبير، كأنها هي الأخرى تخاف من زينب.

كانت فاطمة امرأة غريبة لم تستطع سامية فهمها أبداً، لم يرها أبوها قبل زواجه، فقط ماهود هو الذي لمحها، الذي كان مصراً على تزويج ابنه

من امرأة «إعرُبيَة» كما كان يعلن في لهجته المشوبة بلكنة بدوية مفتعلة وغريبة على عشيرته. وذات مرة وفي أحد جولاته عند دوشة الطيور رآها تحمل الماء في الجرة، فتبعها حتى رآها تنتهي إلى معسكر البدو القادم من تكريت والذي نصب خيمه هناك. لم يبذل مزبان جهداً طويلاً في الحصول على موافقة أهلها، إذ هو الذي سمح لهم بالتالي بالتخييم هناك لفترة من الوقت، بل أهدوها له هدية، قبل أن يرحلوا بأيام.

كان ماهود ولغاية موته فخوراً بتزويج ابنه من امرأة ذات أصل بدوي. فيما بدا مزبان– الذي كان مفوضاً للشرطة آنذاك– غير مرتاح في الأول لصعوبة تحمل فقدان زوجته الجميلة زينب، ولكنه الذي كان يظهر حرصاً فائقاً في إعلان طاعته لأبيه، أبدى حماساً لفكرة أبيه، خاصة عندما عرف أن وزارة الداخلية إن لم تطرد منتسبيها بسبب زوجاتهم ذات الأصل غير العربي، فإنها غير مستعدة لترقيتهم، أمر سيوقف صعوده إلى رتبة معاون شرطة، مثلما سيوقف طريق صعوده في السلطة، بالرغم من شكه بما يقال عن أصل زوجته، فهو يعرف أن الكثير من العائلات لم تسجل أبناءها في سجلات العثمانيين في العشرينيات لتهربها من دفع الضرائب وخوفها من دعوة الصبيان منهم إلى الخدمة العسكرية. أيضاً يعلم مزبان علم اليقين، أن والدي زينب توفيا مبكراً، وأنها تربت بين يدي جدتها التي كانت تحوك الصوف، وكبرت هناك في بيت الجدة التي توفيت بعد زواجها منه بأيام. لقد وقف ماهود منذ البداية ضد زواجه منها بحجة أنها «ليست من أصل وفصل». لم يستسلم ماهود في حربه ضدها، وذهب بعيداً في تعليمه الصغيرين على عداوة أمهما. ولم يشعر الصغيران خاصة سامية– بفقدان أمهما حتى مجيء زوجة الأب الجديدة. ولكن رغم المعاملة السيئة من قبل فاطمة لهما، فإنهما كانا يصدقان الإشاعة المتعلقة بوجود زينب في الناحية.

لكن سامية ومع السنين بدأت تشك بما تقوله فاطمة، لا تتذكر متى بدأت تصغي إلى شكوكها، ولكنها كما تروي إلى ماجدة، كفت عن تصديق قصص فاطمة. ولكي تتأكد من قناعتها، خرجت أكثر من ليلة إلى الشارع، لعلها تلتقي بأمها. كانت على يقين، أنها لو التقتها لطلبت منها مسامحتها ولدعتها إلى الرجوع إلى البيت، وليحدث ما يحدث، أو الذهاب معها حيث تريد.

من جانب آخر كان عصام ماهود يرتعب لمجرد ذكرها. إذ منذ اختفائها وهو يحلم بكوابيس غير عادية، وكثيراً ما استيقظ فزعاً وهو يصيح «أرجوك» . كان مصراً وبقوة بأنه إذا ماعثر على هذه المرأة فسيعاقبها. وإذا ما حاولت سامية تهدئته، فإنه يردها بعنف، طالباً منها أن تعاين الأمر مثلما يعاينه هو. لاينسى أن يقسم لها بكل الرسل والأنبياء أنه رآها الليلة الماضية عند باب الدار وقد سحبت خنجرها ضده. وإذا ماحاولت سامية أخذه بين ذراعيها، ينتفض بوجهها:

– تعاملينني مثل طفل. تحاولين إظهار قوتك. أنا أقوى منك سامية.

كانت سامية تعتقد أنه فقد كل حس للنساء، حتى إذا ما لان وهدأ بعد إلحاحها، فإنه يسألها فيما إذا كانت هي الأخرى لاتحبه؟ كانت تتردد في الإجابة، بالرغم من أنها في داخلها لم تكنّ له أية ضغينة، على العكس، كانت تفتخر بما وصل إليه، ولكنها لاتعرف ما الذي يلجم لسانها في تلك اللحظات، حتى تضغط على نفسها كثيراً، لتقول له في النهاية:

– عصام أنت أخي الوحيد. أنا أحبك وفخورة بك.

ولكن عصام الذي يرى ترددها يرد عليها:

– أنت تكذبين، ترددين هذه الجملة مثل واجب مدرسي.

حينها تصمت سامية، ربما لمعرفتها أنه ليس على خطأ تماماً. هل يسبب عداؤه لأمهما الامتعاض عندها؟ لا تدري. كانت تتساءل في داخلها كثيراً، وربما جاء بوحها لماجدة بكل هذه القصص، التي كان يخفيها عصام ماهود كأسرار، نتيجة لتلك الخلفية. أو ربما وجدت سامية بماجدة امرأة بنفس وضعها، إن لم يكن بالتمام. ولكن مالا تعرفه سامية، ربما حدسته، أن ماجدة لم تحب عصام ماهود مثلما لم تكرهه، أرادت أن تأخذه خطيباً فقط. هكذا فقط خطيباً بالمعنى الذي يفهمه الناس من هذه الكلمة. ولكن هل بالإمكان البقاء عند حدود كونه خطيباً فقط؟

لقد واجهت نفسها بهذا السؤال بالفعل أكثر من مرة. خاصة قبل أيام من قرارها الذهاب إلى بيت عصام ومطالبته بفسخ الخطوبة، بعد لقائها بحسيبة.

كانت خارجة من المدرسة في طريقها إلى البيت، عندما انتبهت إلى مطاردة امرأة لها، لم تحمل الأمر في الأول محمل الجد، إذ ظنت أنها تسير بالصدفة في ذات الطريق، إضافة إلى كونها أنها لاتعرفها، ناهيك عن خلوها من أية عداوات شخصية في الناحية. لم تمهلها المرأة الوقت الطويل في منلوجها، راحت تسرع في خطواتها عندما أصبحتا محاذيتين للجادة الترابية للنهر. فجأة صاحت بها أن تتوقف. فوجئت ماجدة، وحدقت بها مستفسرة، فأجابتها المرأة ساخرة:

– أنت الوحيدة اللي ما تعرفني.

لتضيف مباشرة:

– أقدم نفسي، حسيبة. المهنة قحبة.

فأجابتها ماجدة وقد اصفر وجهها قليلاً:

ـ أهلاً وسهلاً.

فطلبت حسيبة منها النزول من الجادة الترابية إلى النهر:

- أحسن ما يشوفنا أحد.

سارت ماجدة محاذية لها «إذن هذه هي حسيبة»، حدقت بها جيداً بطرف خفي، همست في سرها «امرأة جميلة، رغم كبرها في السن». عينان سوداوان كبيرتان، وجه أسمر دائري، أنف مدبب يشبه أنف صوفيا لورين، شعر أسود حالك نزل حتى الكتفين، لم تغط العباءة جسدها الرشيق، الذي ظهر مكتنزاً خلف ثوبها المخملي الأزرق الذي التصق به، حتى ظهر اللباس الداخلي أسفل الصرة.

عندما أصبحتا عند النهر، وبعد أن أصبحتا محجوبتين من الجادة الترابية، تغيرت سحنة حسيبة. أمسكت ماجدة من ذراعها وشدتها:

- اسمعيني زين. أكيد سمعتي بعلاقتي بعصام؟

هزت ماجدة رأسها بـ «نعم». تركت حسيبة ذراعها وأطلقت ضحكة قصيرة:

- عجيب، رغم العلاقة وافقت على الخطبة.

صمتت ماجدة، فصرخت بها حسيبة:

- جاوبيني.

جمعت ماجدة قواها وصاحت هي الأخرى:

- لا جواب عندي. أنا حرة.

خلصت ماجدة نفسها من ذراع حسيبة، وغادرت المكان بسرعة.

في الحقيقة لم يفاجئها ما سمعته من حسيبة ذلك اليوم. إذ هي لم تصدقه عندما أنكر أمامها أمر علاقته معها، سوى أنها لم تكن مهيأة للقاء

حسيبة في ذلك اليوم. وإذا ما قبلت الأمر في ذهنها، ربما أراحها ما دار بين الاثنين من حديث، فها هي تحصل على سبب آخر لنفورها من عصام ماهود، حتى أنها لم تجد أية جدوى من مواجهته في القصة، مكتفية بالاحتفاظ بها مع نفسها.

وبقدر ما نما نفورها من عصام ماهود، بقدر ما بدأت ماجدة تميل إلى سامية، إذ بطريقة ما تمكنت من فهم مشاعر هذه المرأة، على العكس من الكثيرين الذين كرهوها لسلوكها المتعالي. وعلى العكس من انطباعاتها الأولى بدأت في تعميق علاقتها معها، ناسية مقولات الناس، بل ناسية حتى غيرة عصام الذي صاح بها ذات يوم، في النهاية هو خطيبها الفعلي وليست سامية بسبب غيرته من خروجها المتكرر مع أخته. وماجدة التي سخرت من تعليقه، أي ألم يسببه سلوكها له. لم تفعل ذلك لإغاظته، إنما لأنها وجدت في سامية شخصية تملك خصوصيتها بالفعل. من طرفها كانت سامية حريصة على البوح بكل أسرارها، حتى أنها أعلنت أنها لن تتزوج رغم تجاوزها الثلاثين، لأنها وببساطة ليست بكراً، وعندما سألتها متى وكيف؟ أجابتها من الأفضل لكل الأطراف الاحتفاظ بسر ما حدث، وألا تسألها ماجدة تباعاً. بالرغم من تلك الحميمية، فإن العلاقة بين الاثنين لم تخل من بعض التوترات المفاجئة، إذ بدا لماجدة أن سامية تتصرف بغرابة بعض الأحيان، تظهر ردود أفعال غير متوقعة، خاصة في أوقات لقاء عصام ماهود بها. كانت تحاول إبعاد فكرة غيرة سامية من علاقة الاثنين. ولكن كان يثير استغرابها حماس سامية في تعطيل لقاءاتها مع عصام، رغم شحة هذه اللقاءات، بل إنها كانت تشجع ماجدة على التملص من لقائه، حتى إنها تزودها بالأعذار الكافية. في الحقيقة لم يزعجها سلوك سامية، فقط أثار الفضول عندها.

من طرفه حاول عصام ماهود التقرب إليها بشتى الوسائل، إذ لم يبخل عليها بالهدايا، قلائد ذهب لم تتحمس للبسها، حاجات مهربة من الكويت كان يحصل عليها عن طريق زملائه الحزبيين العاملين في البصرة أو الذين لهم علاقات مع البحارة: أثواب مفصلة على أحدث الموديلات من روما وباريس، عطور الكاشية والفيجي واللاكرفيلد، أحذية خاصة من جلد براق، ملابس داخلية من الحرير الأصلي- تلك هي الهدية الوحيدة التي كانت تستلمها عن طريق سامية- مجلات لبنانية خاصة بحياة أهل الفن مثل الموعد والشبكة، بالإضافة إلى مجلات متخصصة بالمودة، كاسيتات، موسيقى غربية شائعة لديميس روسوس، خوليو إغليسييس، لم تسمعها ماجدة على الغالب من قبل، وغيرها من الهدايا. كان عصام كلما سلمها هدية يحار بما يسلمها تباعاً. لم ينس أن يهدي أهلها أيضاً جهاز تلفزيون ملون، والذي دخل عن طريقه إلى بيتهم للمرة الأولى، في ذلك اليوم نسيت أمها صورة رعد معلقة في غرفة الضيوف. كانت صورته عندما كان طفلاً. لم يخف عصام فضوله لمعرفة صاحب الصورة، حتى سأل ماجدة بعد يومين عنه، فأجابته ماجدة بحذر:

- آخ رعد خالي، مات وهو صغير.

لاتعرف لماذا كذبت حينها؟ ربما لمفاجأتها بسؤال عصام، بالرغم من أن أباها على العكس يجد أنها فعلت الأحسن، فيما أخرجت أمها آهة عميقة، وكأنها قد سمعت خبر موت رعد للتو، بل لم تكتف بتلك الآهة، إنما حدقت فيها بعمق، دون تمكنها من منع انزلاق دمعة من عينيها، رأتها ماجدة تقفز من مكانها وتستقر في حضنها، لتتبعها واحدة أخرى سالت هذه المرة بهدوء على خدها، لتقف عند زاويتي شفتيها اللتين بدتا يابستين، وبصوت واهن علقت:

- آخ بنتي، تعتقدين رعد يقبل زواجك؟

ودون تفكير منها طفرت من عينها هي الأخرى دمعة لم تستطع منعها. أرادت أن تقول لأمها «كلا»، لكن فمها انغلق كعادته. حدقت بأبيها الذي عبر وجهه عن استياء ملحوظ، وكأن مجرد ذكر اسم رعد أمر مشؤوم، فهو الذي قال ذات يوم:

- رعد هو المسؤول عن وضعه، لأنه ضد الحزب والدولة. إذا كان يحبنا عليه تغيير مواقفه وترك السياسة ويصبح مثل باقي البشر.

لقد شعرت ماجدة أن أمها أعلنت النذير في سؤالها، فمنذ أشهر ولم يظهر رعد الذي هي بأشد الحاجة إليه، لسماع رأيه في خطبتها. ولكن هل هي ساذجة إلى هذا الحد؟ فحتى أمها، بكل تناقضاتها تدرك أنه لن يوافق. تعرف ماجدة أيضاً، أنه إن لم يعترض سيقول لها هي وحدها عليها أن تختار. لكن ما يعذبها في هذه اللحظة إحساسها أنها خانته بشكل ما. لقد قال لها ذات يوم:

- انظري في البلاد ملايين الرجال. إذا اخترت يوما أحدهم، أتمنى أن يفرحني اختيارك على الأقل.

وبعد كل ما يُقال عن عصام ماهود وسلطته، فما الذي سيفرح رعد بقرارها؟

للحظة نهضت ماجدة من مكانها، وقفت لتجفف دموعها فيما انتصبت هناك كشجرة، استرجع وجهها حيويته وكأنه يعلن إقبالها على قرار خطير. لفترة غير قصيرة ظلت واقفة في ساحة الدار، فيما تعالت خلفها النخلة المنتصبة في باحة البيت والتي ألقت بظلالها حيث جلس والداها، فيما بانت

السعفات متهدلات ومائلات إلى الجوانب.

بعد تردد قصير سألها أبوها:

-أين تذهبين؟

لم تجب، إنما وثبت، حتى كادت أن تصطدم بجذع النخلة، عاينتهما للحظة وجيزة لتفتح باب الدار وتختفي عن أبصارهما بسرعة. أصبحت عند الشارع، واجهتها أشعة الشمس التي كانت ماتزال قوية بعض الشيء والتي صعبت الرؤية عليها، ممتزجة مع هيئات وهمية يصنعها الضوء، حتى اعتقدت أنها تدوخ وسوف تفقد الوعي عند الخطوات المقبلة، ولكنها نسيت حساسية عينها للضوء، كانت مخدرة بقرارها. وعلى غير عادتها سارت في شوارع مقفرة إلا من بعض الأطفال الذين غافلوا أهلهم الغاطين في قيلولتهم الآن ليلعبوا في الشارع تحت لهيب الظهر. كانت ماجدة تدفع خطواتها إلى الأمام بقوة لم تعهدها من قبل. كانت كمن تحاول التسابق مع نفسها، في شوارع بدت كأنها هجرت منذ القدم، لاشتعال الشمس في تلك الأيام الأخيرة من ربيع، كان على غير عادته قصيرا مقارنة بالربيعات الأخرى. وكلما تسارعت خطواتها، كلما ازداد إصرارها على الحسم. لاتريد ترك الأمر للصدفة «لاصدفة بعد اليوم» تهتف في داخلها. هي التي تقرر، وستقول لعصام ماهود، أن الخطبة كانت مجرد نكتة لاغير. نعم ستقول له إنها كانت تمزح لا أقل ولا أكثر. وإذا ما عاند فستطلب من سامية التدخل بينهما، ستفهمها بالتأكيد وستقف إلى جانبها.

شعرت ماجدة بالعرق ينز من كل مسامات جسدها، ومع ازدياد خطواتها تزداد ضربات نبضها، ويزداد عطشها. عطش يسري في الأوردة والشرايين وكأن جلدها قد أفرغ كل ما به تلك الظهيرة. ومع اقترابها من بيت ماهود، تتراجع خطواتها قليلاً، لا تدري لماذا، فهي تحس بوهن بسيط

عند الساقين، وبجفاف مخيف على الشفتين. يزداد عويل نبضها، تعرق، ويزيد العطش في إيلامه. تمد لسانها وتمرره على شفتيها مرة، مرتين، بل مرات، هل تراكم الجفاف هناك منذ قرون؟ وبدون إرادة منها تفتح ضفيرة الشعر التي استقرت فوق كتفها، وعندما أحست بشعرها يسترخي هناك سألت نفسها: لماذا فعلت ذلك؟ اكتظ رأسها بأسئلة كثيرة.

ولكن سيان، فلمرة واحدة وجدت تلك الشوارع تبث الرعب فيها، عندما ضغطت يدها على جرس بيت ماهود. ولأول مرة في حياتها تمنت وجود الله، وبحماس.

لم تنتظر طويلاً حتى انفتح الباب، وظهر عصام ماهود في بيجامته. وقف أمامها، فاتحاً عينيه باتساعهما، غير مصدقٍ زيارتها. التمعت خصلات شعره الشقراء عند أطرافها، وبدا كأنه خرج من الحمام للتو، فقد وصلت مناخيرها رائحة صابون اللوكس حادة ممتزجة مع كولونيا التاباك التي يفتخر بالحصول عليهما مباشرة من انكلترا. وقبل أن يسألها عن سبب مجيئها فتح لها الباب. دخلت ماجدة الصالون مباشرة، وكأن قوة غريبة تدفعها هناك. بعث مكيف الهواء تياراً بارداً دخل تحت ثوبها. شعرت بجفاف عرقها السريع، وبتحرك زغب ساعديها. جلست على إحدى الكنبات، وطلبت منه قدحاً من الماء:

– أعتقد بيبسي مثلج أفضل.

ودون وعي منها وجدت نفسها تصيح بصوت لم يخل من الجدية، معلنة له عن تفضيلها للماء. لم يجبها، إنما حمل لها قدحاً بارداً بسرعة، دفعته مباشرة إلى جوفها، سألته وهي تضع القدح على الطاولة أمامها:

– سامية موجودة؟

فأجابها:

- أعتقد راحت عند الخياطة.

وللحظات أحجمت عن الكلام، وكأنها تحاول أن تهدأ قليلاً لتستجمع قواها وتلقي بما ينوء به داخلها. لكن اللعنة، ما الذي يجعل لسانها يلتصق بشفتها السفلى، حتى أنها تخاف إذا ما فتحت فمها، فإنها لا تستطيع أن تعبر عن قرارها بصورة صحيحة. اللعنة، كلا لن ترضى الرضوخ لترددها هذه المرة. إنما عليها أن تخرج كل ما تبقى في خزان عنادها. لماذا تضطرب؟ وعندما لاحظت أنه قد انتبه إلى اضطرابها، اضطربت أكثر، وهمت بمغادرة المكان، لكن عصام لم يمهلها، إنما باغتها ساحباً إياها من ذراعيها وملقياً بها إلى الكنبة. صرخت به أن يتركها، كما أنها لن تصبح زوجته أبداً. وأياً كان ما تقوله فسيذهب وسط غمغمته وهجومه العنيف، إذ بدا في تلك اللحظة خفيفاً كريشة، وبسرعة غير عادية جردها من ثيابها، ومزق لباسها الداخلي الذي صعب عليه سحبه، أما بيجامته فقد انتهت قبل ذلك إلى الأرض. وماجدة التي فوجئت بهجومه وأخذت به غير متوقعة حدوثه، لم تستطع الدفاع عن نفسها، فقد كانت ضعيفة خائرة القوى، حتى عندما حاولت رفسه لم تساعدها قدماها اللتان شعرت بثقلهما. لقد ركبتها المفاجأة مثل موجة. شعرت به يسكنها، لم يحدث شرخاً في جسدها، إنما أحدث شرخاً في روحها لن تنساه طالما بقيت على قيد الحياة. مع حركتهما تحرك ألم يسري في دمها. كانت مجهضة بالفعل. لم تترك فخذيها يستقران فوق الكنبة فقط، بل أسبلت ذراعيها أيضاً. كان بإمكانه التجول بفمه على شفتيها المغلقتين، رقبتها، حلمتيها، كان يعتقد أنها سمحت له عن لذة، حتى راح يهمس في أذنها:

- حبيبتي، لا يهمك، راح نتزوج يوم ١٧ أو ٣٠ تموز.

لم تسمعه ماجدة، كانت في شبه غيبوبة. لم تعد تتحرك. بل لم تشعر به على الإطلاق عندما انتهى لينهض بعدها ويتجه إلى الحمام.

ولولا مداعبته لها أثناء رجوعه من الحمام، لظلت ربما مستلقية لزمن طويل. وعندما فتحت عينيها ورأت الدم بين فخذيها، رفعت جذعها مرعوبة، وراحت تبكي بحرقة. حاول عصام أن يأخذها بذراعيه، غير ناس إلقاء ضحكة متهورة استفزتها تماماً، فنهضت من مكانها بذعر ساحبة ثوبها لتلقيه فوق جسدها، وبسرعة سوت شعرها، كأنها جمعت كل قوتها وعنادها الذي نسيته، وقفت أمامه لتعلن:

– عصام لا تحلم بأن أتزوجك. أنت أحقر إنسان عرفته في حياتي.

وقبل أن ينهض من مكانه، كانت هي قد غادرت الصالون لتصبح عند الشارع بسرعة.

قطعت الطريق هذه المرة كعملاق متحدب. كتفاها متهدلان، لم تحس بحرارة الشمس أثناء سيرها، فقد شغلها ماحدث، وأحدثت لزوجة الدم المتبقية بين فخذيها اشمئزازاً، فأخذت تحث الخطى، حتى وصلت إلى البيت، ودخلت دون أن يحس بها أحد، كان والداها قد ناما القيلولة. صعدت إلى غرفتها، وعندما دخلت ألقت بنفسها إلى الفراش،وراحت تبكي بحرقة، لتتوقف فجأة وتنهض، كأنها استرجعت كل عنادها القديم، دفعة واحدة. قررت أن تأخذ دوشاً. نزلت من غرفتها إلى الحمام. نضت الثياب عنها بسرعة، ودخلت تحت الدوش. هكذا ظلت واقفة تحته دقائق طويلة. لم تتوقف هذه المرة طويلاً في غسلها لشعرها، بل راحت تغسل نفسها بالصابون أكثر من مرة وكأن كل قذارات العالم تجمعت هناك. لم تفكر في غشائها مثلما كانت تفعل سابقاً، إذ بدا وكأنه وجد منذ القدم، أو هكذا أنه

مجرد اصطلاح، كلمة لا أكثر، وليس غشاءً من الدم والهلام، وإذا ما زالت بعض بقاياه، فإنها يقيناً اختفت أثناء استحمامها. لم تنته منه فقط، إنما كانت على يقين، أنها انتهت من الـ«عصام ماهود» وإلى الأبد. على العكس، لم تحزن، فما الذي تخسره. فهي تعرف أن ما حدث هذه الظهيرة هو نهاية أوهام، معها انتهى كل ما له علاقة بماضيها، الغشاء وعصام ماهود.
ضحكت في داخلها عندما تخيلت عصام ماهود غشاءً مخاطياً. لم تعد ترعبها صورته على الكنبة، بل بدا لها هشاً على عكس الانطباع الذي يمنحه، أو من تلك الكتلة اللحمية التي تعبر عنه. كلا، لقد انتهت من كل ذلك دفعة واحدة.

ولبرهة شعرت بالماء ينزلق شفيفاً فوق جسدها. تتحسس المكان بيديها، تاركة الماء ينزلق فوق شعرها، جسمها، بين فخذيها، يمتزج مع رائحتها المنبعثة من هناك والتي تصل خياشيمها، طاغية على رائحة الصابون. للحظة تمتزج الروائح، فتغيب، كأنها تدخل دهاليز مظلمة لكنها جميلة، دهاليز لاتبعث غير روائح اختراقات كاوية، لا تؤجج رغباتها فقط، إنما تزيد عنادها. لم تشعر ماجدة بسعادة من قبل بمثل تلك الظهيرة، لم تنه دوشها فقط، إنما انتهت من ماضيها، حتى قررت الكف عن الاتصال بعصام ماهود. لم يهدأ عصام ماهود عندما أبلغه عبد الحميد العطار بفسخ ماجدة للخطبة. حاول التحدث معها فلم يفلح، أرسل لها أخته غير ناس بالطبع أن يحملها هداياه لها، فردتها بود، دون أن يغيب عن ماجدة عدم امتعاض سامية من انفصام الخطوبة، على العكس، فقد عبرت عن فهمها عندما سمعت القصة منها. لم تفهم ماجدة رد فعل سامية، ولكنها أيضاً لم تكن مهتمة بأية توضيحات، واكتفت بالموافقة على اقتراح سامية أن تبقيا صديقتين، بالرغم من عدم صدقها، لأنها كانت على يقين إذا ما أرادت الانتهاء من عصام،

فعليها عدم لقاء أخته، لأنها ستذكرها به شاءت أم أبت.

لم يستسلم عصام ماهود عندما أخبرته أخته بالكف عن التفكير بماجدة مستقبلاً، بل حاول هذه المرة التأثير عليها عن طريق أبيها. وعندما حاول أبوها إقناعها بالعدول عن قرارها، أخبرته أن عصام حاول اغتصابها، وإذا أراد التأكد فلديها الملابس الممزقة كإثبات، بالرغم من أنها لم تبح له فصه لبكارتها. لقد شعرت ولدفعة واحدة بقوة غير عادية، حتى أن أباها بدا للمرة الأولى بلا حيلة أمام حججها تلك، حتى الجمل التي رددتها شفتاه مثل «حاولي مرة أخرى» أو «أعطيه فرصة أخرى» أو «الرجل لا يحتمل مثل المرأة» أو «الشيطان يدخل في عب الرجل دائماً» بدت ضعيفة، فهو حدس أي عناد سيطر على ابنته هذه المرة، التي أصبحت حبيسة قرارها هذه المرة، وكأن ما من قوة في العالم تثنيها عن عزمها، حتى تهديدات عصام التي كان يبعثها عن طريق مدير المدرسة لم تجد نفعاً.

لقد عاد عصام ماهود مرة أخرى إلى عادته القديمة في الظهور كل صباح في الثامنة إلا ربعاً وعند الظهيرة في الثانية عشرة. كانت ملاحقته لها هي الأمر الوحيد الذي لم تستطع تجنبه. وكعادته لم ينس استبدال بدلاته كل يوم، ورش العطور الثمينة، لكن وجهه بدا محبطاً بعض الشيء وهذه المرة لم يلاحقها بصمت كما كان يفعل من قبل، إنما كان يغادر السيارة بعض المرات ويوقفها عند الطريق، دون أن يعينه أمر المارة الذين كانوا يحدقون به بفضول والذين يبتعدون عندما يشعرون بنظراته الغاضبة. كلا، لم ينفعه صراخه بها، ولا ملاحقته لها، بل لم ينفعه ضربه لها. كان ذلك عندما جاء إلى المدرسة وطلب من المدير أن يرسلها إلى مستودع الرياضة. وعندما أرسل المدير في طلبها، طلبت منه أن يكف عن ذكر قصة عصام، فأجابها كاذباً:

– هذه المرة يريدك مدرس الرياضة في مستودع الرياضة.

لقد بدا لها الطلب غريباً فتساءلت بدهشة:

- لماذا؟

فأجابها:

- بعض الاستفسارات.

وفي الطريق إلى المستودع لم تشأ تصديق رواية المدير، لذا عندما دخلت الغرفة ووجدت عصام ماهود هناك لم تندهش كثيراً. كان بإمكانها رؤية اضطرابه، فقد بدا حائراً بالفعل، ربما لتردده بين إظهار الليونة والقوة. لقد فاجأته بقوتها، على عكس تصوراته جميعاً، إذ كان يعتقد أنها ستضطر إلى التسليم إليه بعد فضه بكارتها. وقفت ماجدة أمامه رافعة وجهها إلى الأعلى هذه المرة وكأنها تريد التأكيد على عنادها أكثر، ثم أخرجت صوتاً فيه نبرة حادة:

- عصام كل شيء انتهى بيني وبينك.

اقترب منها ليقول لها بهدوء مفتعل، وبصوت لم يخف ارتجافه:

- عزيزتي، أرجوك لاتضيعي مستقبلك. تعرفين مقدار حبي. اطلبي كل شيء، أنت عندي أكثر من أميرة.

ثم بود متصنع ممزوج بتهديد مبطن:

- أنت غير بكر. وحدي أتحمل مسؤولية زواجك.

في تلك اللحظة دفعت باستهزاء:

- أرجوك، لاداعي للقلق على بكارتي. خيطتها وانتهت القضية.

وحين شرعت بمغادرة المستودع استشاط عصام ماهود غضباً، وهجم عليها مثلما فعل في تلك الظهيرة في بيته، لكنها هذه المرة كانت تملك من العناد ما جعلها ترفسه بإحدى ركبتيها بين أفخاذه، وإن لم تستطع منع الصفعة التي وجهها إليها. ظل هو واقفاً في مكانه، واضعاً يديه بين أفخاذه،

محاولاً إخفاء ألمه. خرجت ماجدة بسرعة. صفقت الباب خلفها. كانت وكأنها خرجت للتو من العدم.

❖

كانت قد مرت أيام كثيرة على إعارة صالح رواية «الليالي البيضاء» إلى ماجدة. وبالذات في اليوم الذي خرجت فيه من الدار حاملة الكتاب في حقيبتها لإرجاعه إليه بعد انتهائها من قراءته، في ذهنها عصام ماهود الذي سيلاحقها حتماً في الساعة الثامنة إلا ربعاً. في ذلك اليوم بالذات وجدت جثة سامية معلقة على أحد أعمدة التلغراف عند باب دار عبد الحسين الدلال. بسرعة شاع الخبر، ومعه شاع تكليف عصام للشرطة المحلية في البحث عن خليل بونة لاتهامه له بقتلها.

الاثنان صالح وماجدة لم يجدا العناء في البحث عن أسباب صمتها ذاك اليوم. فماجدة التي استغربت بادئ الأمر من عدم وجود عصام ماهود على عادته، كانت دهشتها مصحوبة بالارتياح الذي سرعان ما اختفى عندما سمعت الخبر في المدرسة تتهامسه الألسن. أما صالح ولغاية ذلك التاريخ، لم يخطر في ذهنه غير سؤالها عن انطباعاتها بعد قراءاتها للكتاب. لقد علم حينه للمرة الأولى أنها خطيبة عصام، وأن صداقة ربطتها مع سامية، لذا لم يستغرب الوجوم الذي خيم على وجهها ولو لم يسمع الخبر من المدير الذي ألقاه مثل قنبلة في حضوره أمام المدرسين في إدارة المدرسة، لأعتقد أنها ربما حائرة بما تقوله بعد قراءتها للرواية. لاحظ صالح تطلع المدير به طوال الوقت وكأنه يدرس ملامحه بكل دقائقها بعينيه الفضوليتين، منتظراً رد فعل منه. لم يشأ تأويل النظرات أولاً، معتقداً أنه يتفحصه لمجرد الفضول وحسب، بالرغم

من شكه في كل شخص ينظر إليه، بم يظن ذلك الصباح أن المدير يخبئ له مفاجأة ما، إذ رآه يحدق به من طرف عينيه، إذ استمر في تقليب الجريدة محاولاً البقاء على وضعه الحيادي، حتى سماعه المدير يقول:

- خاصة إذا عرفنا أنها أخت خطيب ماجدة.

ترك صالح الجريدة في مكانها. فكر أن ينهض، ولكن رنين الجرس أنقذه من مأزقه.

عندما دخل الصف شعر أنه يدوخ. حيا الطلاب، توجه إلى النافذة. سمح لعينيه بالتجول خارج المدرسة. في الصف سرى همس ربما كان عادياً، ولكن صالح ذلك اليوم كان يفسره يقيناً بشكل آخر. لم يسأل ماجدة عن الكتاب، هي أيضاً لم تعلق بشيء فقط نظراتهما اللتان كانتا تلتقيان بين اللحظة والأخرى، تشيران إلى أسئلة كثيرة. ومن أعماق الصف كانت تأتيه الهمسات متقطعة مثل نشارة الخشب. يقيناً أن موت سامية حدث غير عادي في هذه البلدة الصغيرة، فقد أثار انتحارها الكثير من التقولات. ترى هل كان سيعرف بخطبة سامية لو لم تنتحر؟. بوده أن يسأل ماجدة عما حدث، ولكن هناك ما يلجم لسانه، هي أيضاً كانت تحاول إرغام نفسها على تجاوز الحادثة والتحدث عن «الليالي البيضاء»، ولكنها شعرت بما يجعل لسانها يرتد إلى مكانه، كأنها تحتفظ بذبابة مقيتة بين الفكين. هكذا واظب الاثنان على حوارهما الداخلي. فجأة قال صالح للطلاب:

- أترككم وحدكم لحظات. أرجع بعد قليل.

لم يحدثهم عن مدارس «العيارين والشطار» كما كان مقرراً ضمن خطته التدريسية لذلك اليوم، إنما خرج، غير منتبه أيضاً إلى نظرات ماجدة

الي لم تخف بعض الاستغراب.

استرد بعضاً من هدوئه، عندما أصبح عند الطارمة المطلة على سطح المدرسة. كانت الشمس نشرت أشعتها بقوة عند الساحة، فيما رسمت الطارمة ظلالاً شفيفة امتزجت مع ظلال شجرة الصفصاف العملاقة المنتصبة في حضن الساحة. لمح مدير المدرسة يعبر عند طرف الساحة الآخر، في اتجاه مستودع الرياضة. عرق صالح فجأة، اضطرب. ترى ما الذي حصل؟ ما الذي يجعل داخله يرتجف؟ لا يريد تصديق ذلك، فيمد كفه أمامه، يحاول توتيره، فيرى ارتجاف أصابعه. يخفي يده فجأة في جيبه رغم الحر، كأنه يخشى أن يضبطه أحد، ويهمس مع نفسه، «هل هو عصام ماهود الذي يثير اضطرابه؟ هل هي خطبة ماجدة؟ ما الذي يغير تصوراته عنها؟ لقد توقع كل شيء، إلا أن تكون مخطوبة لعصام ماهود؟ حسناً لقد قرر ومنذ زمن تغيير حياته، ألا يتدخل في السياسة، وقع التعهد، ولكن ما علاقة ماجدة بكل هذا؟. مرة أخرى تستحضره جملة ما الذي صنعت بنفسك؟» هل ينسحب التعهد على علاقاته الاجتماعية أيضاً؟ لايدري، يكتظ رأسه، فيرفع يده لمسك صدغه، يحاول تخيل وجه سامية الذي لم يره لحسن حظه أبداً، إذ ربما لما استطاع تحمل صورتها ميتة. ترى لماذا انتحرت؟ بل لماذا علقت نفسها على عمود تلغراف؟ لا يدري أين قرأ ذات مرة، يمكن معرفة دوافع ومعاناة المنتحر من خلال طريقة انتحاره، يقيناً كان لسامية أسبابها، ولكن ما الذي يجعل المرء ينتحر بشكل عام؟ أيدري أيضاً من كتب، إذا كانت الحياة عبثاً لايطاق، فالموت أيضاً مشروع فاشل. وهو صالح سلطان، مدرس التاريخ، الذي كان يكتب الشعر ذات يوم، والذي كان يحلم بالثورة، هل تراه سينتحر أيضاً؟ أرعبته الفكرة، وحاول طردها من دماغه بكل صورة. ما علاقة خطبة ماجدة بالانتحار؟ هل يغار، أم هي مناسبة لاختيار قراراته؟ ترى ما الذي جعل ماجدة تخطب هذا الـ«عصام ماهود» ؟ ما الذي كانت تبحث عنه،

وهي أجمل بنات الناحية؟ هل كان يهمها المركز الاجتماعي والسلطة، وماهي حاجتها لهما؟ ذلك الصباح اكتشف صالح أنه لا يعرف ماجدة إلا بشكل سطحي، حتى أنه لم يدر أنها كانت مخطوبة. ولكنه يعرف عصام ماهود جيداً، ومعرفته تلك تسمح له أن يندهش بالفعل أن تكون فتاة رقيقة مثل ماجدة على علاقة به. رقيقة؟ هل هي إسقاطاته؟ ربما أغرتها ليونة عصام المفتعلة التي تدرب على إظهارها أحياناً، ليس أمامها وحدها إنما أمام الكثيرين، بل حتى أمامه في نادي الموظفين. هكذا كان عصام ماهود يغطي بتلك البشاشة والمسحة الأنثوية التي احتفظت ملامحه بها، على الاعتقالات التي كانت تحدث في الناحية بتحريضه، فهو الذي يحرك مدير الأمن ومدير الشرطة ومدير الاستخبارات، ومدير المدرسة مثل بيادق شطرنج. وإذا كان لديه بعض من الشك بعد لقاء النادي، فإنه زال تماماً عندما التقاه كاظم ذات ليلة أثناء رجوعه للبيت، والذي أوقفه عند زاوية أحد الشوارع. لم يخف صالح ذعره في الوهلة الأولى، ولكن كاظم طمأنه بابتسامته مشيراً له ألا يقلق:

- أستاذ صالح. لاتخف، التقينا مرة عند دكان الحلاق، تذكر.

فقال صالح:

- آخ، أنت صاحب الجريدة الرياضية؟

أجابه كاظم ضاحكاً:

- بالضبط، نحن وفي الزمن الرياضي المطلق.

ثم أكمل، وبه رغبة قوية لطمأنة صالح:

- اسمي كاظم افندي، كنت موظفاً في التربية، أما الآن داعيك..

فقاطعه صالح:

- اخ إنت ملحن أغنية «حل العيون السود» ؟

فأكمل كاظم ضاحكاً:

- حليهم أكثر.
لم يكمل. صمت لبرهة ليردف بعدها:

- آخ لاداعي للحديث عن حياتي. المهم بودي أحكي وياك عن موضوع آخر.

لم يحتج صالح وقتاً طويلاً لكي يتطامن، فقد وجد نفسه يتسم بسرعة. لايدري لماذا بعثت ملامح كاظم فيه شيئاً من الطمأنينة، ربما هو تمرس التكهن السريع بحكم الشعور بالمطاردة، إذ اعتاد منذ سنوات التمعن في الوجوه قبل الدخول في حديث معها، وخاصة إذا ما تعلق الأمر بالسياسة، وقبل أن يقول شيئاً لكاظم سحبه هذا من ذراعه. اندفعا سائرين، صامتين. سارا مسافة غير قصيرة تحت قمر كان في اكتماله ألقى ضوءه الواضح فوق طريقهما، حتى انتبها إلى وصولهما إلى حافة السدة الترابية. لقد نسي صالح أمر ذهابه إلى البيت، وراح يحدق في الأفق الذي امتد أمامه منغلقاً أسود، في عمقه برقت التماعات فضية مترجرجة. تكهن صالح أن كاظم بصدد ائتمانه على سر خطير، لذا تفاجأ عندما سمعه يذكر اسم عصام ماهود، مما جعله يطلب منه:

- لايهمني سماع أخبار هذا الرجل. الأمر سيان. وأنا لست أكثر من معلم هنا. ليست له علاقة في المدرسة على الإطلاق. إن ما يفعله عصام هي مشاكل تخص الناحية لا أريد التدخل فيها.
فقال له كاظم متسائلاً:
- أعتقد حتى أنت لاتقتنع بما تقول.
فأجابه بثقة مبالغ بها:
- على العكس، مقتنع تماماً. مع تقديري لـحسن نيتك، لاداعي أن أعرف تفاصيل أخرى عن الناحية وعصام ماهود، أنا معلم وكفى.

سكتا لبرهة، فأردف كاظم:
- ولكن إذا أعطيت عصام الأصبع راح يطلب منك اليد كلها، ثم..
فقاطعه صالح:
- لكن من أعطاه الأصبع؟
فأجابه كاظم مبتسماً:
- إن صمتك هو الأصبع، زائداً أنت غير حزبي. كانت غايتي توضيح الأمر، أنت حر بالتعامل.
ثم أكمل بعد صمت قصير:
- بغض النظر عن قضية عصام، أحب أن نبقى أصدقاء.
لم يفكر صالح باقتراحه طويلاً، إنما مد يده بسرعة وصافحه بمودة:
- أوافق على صداقتك.

وعندما رجعا إلى البلدة، ودع أحدهما الآخر، بعد أن وصف له كاظم أين يسكن،. وإذا زاره ولم يجده هناك، فسيجده عند كوخ خليل بونة في الجهة الأخرى من الناحية.

- لاتسألني عن خليل، هو مثل تلك الشخصيات التي بالسينما، تظهر وتختفي حسب إرادته، ولا واحد يعرف منين إجت وين تروح.

لبرهة أراد أن يخبره عن لقائه بخليل، ولكنه أحجم بخوفه من الدخول في مطبات هو في غنى عنها. حينها فكر صالح، إنها بالفعل المرة الأولى التي يشعر بحاجته إلى صديق. لقد خسر الكثير من الصداقات، وكان طوال الوقت يعزي نفسه بتلك الجملة التي قرأها ذات مرة «كثير من الأصدقاء افتقدتهم وهم أحياء، والذنب ليس بذنب أحد إنما كانوا ما كانوا وكنت ما كنت» . كان على دراية بصعوبة الصداقة في تلك الأيام، فكم من الأصدقاء

بعثوا بأصدقائهم إلى السجن، إما بسبب الحفاظ على الوظيفة أو بسبب إنقاذ الجلد، ولكن ما لم يحسب حسابه هو سماعه هذه الكلمة مرة أخرى في هذه المدينة الصغيرة. ورغم سكره تلك الليلة، إلا أنه حمل العرض محمل الجد، لهذا السبب عندما ازداد اضطرابه في تلك الظهيرة، عندما وقف تحت الطارمة، فكر في زيارة كاظم بعد انتهاء الدوام.

سرت فيه حيوية مفاجئة، وحين تحرك باتجاه الصف رن جرس انتهاء الحصة. كان الطلاب قد بدأوا في مغادرة الصف. تأخرت ماجدة على عمد حتى أصبحت آخر الطابور، فقالت له وهي تمر به:

– أعجبتني القصة.

قالت الجملة، وهي تخرج الكتاب لتسلمه إليه.

فقال لها:

– احتفظي به، هدية.

أرجعته إلى حقيبتها، فيما انتهى خوف صالح لمرة واحدة، فقال لها:

– حاولي زيارة جدتي.

لم تجبه، كما لم تبد أي رد فعل، إنما غادرت المكان بسرعة.

لم يذهب صالح تلك الظهيرة إلى البيت، بعد انتهاء دوامه، إنما اتجه حيث وصف له كاظم بيته. كان عليه أن يقطع سوق المدينة ثم ليدخل في شارع فرعي يقود إلى الجهة المعاكسة للنهر، وعند دكان البقالة الوحيد في ذلك الزقاق، إلى يساره عند الباب الثالث اتجه ليضغط على الجرس. كانت داراً قديمة. لم يقف صالح فترة طويلة تحت شمس الظهيرة. ظهر له في الأول طفل صغير سأله عن اسمه وعندما عرف أنه صالح، قاده إلى داخل البيت:

- تفضل عمو أبوي في البيت.

ابتسم صالح للطفل، ووجد نفسه مدفوعاً لأصابع الطفل التي راحت تجره بحماس يفوق سنواته الست. وعندما أصبحا في ساحة الدار، واجهته شجرة نخل ارتفعت باسقة وسط ساحة الدار، نشرت ظلالها العريضة على ساحة الدار، ووصلت الطارمات التي تقدمت الغرف الثلاث، والتي خرج كاظم من إحداها، مبدياً فرحاً غير عادي عندما رآه،، وبعد أن صافحه استدار إلى الطفل:

- سبع نهار، صالح صديق طيب.

فأجاب الطفل فخوراً:

- عرفته من وجهه.

أشار كاظم لصالح أن يتبعه إلى داخل الغرفة، سأله إذا كان قد تغدى، فأجابه بالنفي. اختفى كاظم للحظات وحمل صينية صغيرة فوقها صحنان من الأرز والمرقة.

- بامية طبختها بنفسي.

ابتسم صالح، وراح يأكل بشهية، ليتوقف فجأة:

- تعيش وحدك؟

فأجابه بصوت فيه سخرية مرة:

- نعم ويبدو راح أبقى وحدي للأبد.

لم يفهم صالح، ولكنه كمن يحذر السؤال، تابع الأكل. وحين انتهى، كان كاظم قد حمل الشاى. رفع الصينية.

بدأ صالح في شرب الشاي، فيما نظر كاظم إليه بإمعان وسأله:

- بالتأكيد هناك ما يشغلك.

وصالح الذي أخذ يرتشف الشاي بحماس، شعر بحرارة تصعد إلى صدغيه وبعرق يغزو مساماته، حتى أن كاظم سأله إذا كان عليه رفع سرعة المروحة التي كانت تدور في زاوية الغرفة، فأشار له بنعم. في الحقيقة لم يكن الطقس حاراً، إنما كان صالح الذي يشعر بالحرارة التي كانت تلهب أعضاءه والتي لايعرف من أين تأتيه. إذ منذ مبادرة كاظم بالسؤال، شيء أشبه بالتردد يسري في داخله، يضغط على شرايين الرأس أو شيء أشبه بالشك في ما يحمله في داخله، شيء يجلب معه الاضطراب والفوضى، يجعل مسامات الجلد تنفتح، تنز عرقها بغزارة. كان كمن يقبل على قرار خطير، يعرف أنه جاء إلى هنا ليسمع من كاظم عن ما لايعرفه مدفوعاً بصداقة اقترحها عليه.

وكأن كاظم عرف ما يدور في رأس صالح، قال له:

– ربما مازلت تتردد؟

وعندما لاحظ صمت صالح، افتر ثغره عن ابتسامة حزينة:

– أرجو السماح لي بالحديث بدون مقاطعة.

صمت صالح كأنه يعلن موافقته، فبدأ كاظم في الحديث:

– أعرف شكوكك وقلقك. كلنا نملكها. لكن القضية تختلف بيني وبينك. أنت لاتعرف الكثير عني. أنا كاظم فندي كنت موظفاً في التربية، ألحن أغاني بين الفترة والأخرى، طردوني من التربية، الآن أشتغل في سيارة أجرة، طردوني لأسباب تعرفها أنت.

ثم صمت قليلاً ليرتشف بعضاً من شايه.

– أنت تعتقد أنني لا أعرفك. تخطئ أنت صالح سلطان؟

توقف للحظة، عندما رأى دهشة صالح لما يقوله:

– لا تندهش. قرأت أشعارك منذ سنوات كانت صورتك على الغلاف.

فقاطعه صالح:

- انقطعت عن كتابة الشعر.

فأجاب كاظم:

- أنت الوحيد، مع عدد قليل، اللي ما نشر ديوان في وزارتهم، الآخرين نشرت الدولة دواوينهم، هل أعدهم؟ كل الذين نشروا في الوزارة دفعوا الثمن. زائداً، أنت انقطعت عن كتابة الشعر بعد مارس ١٩٧٨، بعد إعدام الواحد والثلاثين.

صمتنا لبرهة.

- مع ذلك مع الأسف توقفت عن كتابة الشعر. تعرف؟ كانت قصائد الحب اللي تكتبها تعجبني أكثر من قصائد السياسة. كل ما كتبته عن المرأه جميل. أعتقد أنت عاشق كبير. كانت..

وقف كاظم وكأنه تردد في كلمة الحديث. أخرج آهة عميقة وأكمل:

- كانت قصائدك تعجب زوجتي سميرة أيضا، كانت تحتفظ ببعض القصاصات، كنا نغنيها مع بعض.

لم يحافظ صالح على صمته هذه المرة:

- أعتقد زوجتك معتقلة، صحيح؟

فهز كاظم رأسه بالإيجاب:

- ممكن أن تقول مسجونة. جاءوا قبل أربعة أشهر، هذه المرة بملابس الممرضين، ادعوا بأن عندهم ورقة وتقريراً طبياً يقول إنها مجنونة ويجب أخذها إلى الشماعية، مبررين قولهم إنها تشتم الدولة علانية بمناسبة وغير مناسبة.

صمت، ثم أكمل:

- تعرف الشخص اللي حركهم؟

فوجد صالح نفسه يجيب بصورة أوتوماتيكية:

- حضرة المحترم عصام ماهود.

في تلك اللحظة هدأت اضطرابات صالح وجف عرقه وكأنه بحاجة إلى تلك القصة. شعر بحميمية إلى هذا الرجل الذي ذكره بقصائده التي كتبها، إنه يعيدها إلى ذاكرته دفعة واحدة. لم يوقع عام ٧٨ التعهد فقط، إنما تعهد مع نفسه ألا يكتب بعدها حرفاً واحداً. أراد أن ينتهي من هذا الـ«صالح» الشاعر، كمن يبحث عن شخصية جديدة. ممثل يبحث عن دور جديد. لماذا يثير كاظم فيه ماضيا كان يعتقد أنه انتهى من دفنه؟ يستحوذ عليه شعور ذلك الذي يسير في جنازته الآن، فحتى تلك الظهيرة كان يعتقد أنه الشخص القديم فيه، لا لأنه جبان، أو لأنه بلا موقف، إنما لأنه تعب ببساطة. تعب، وما عاد يطيق، قال لنفسه ببساطة «آن لك أن تستريح»، وعندما اختار هذا الركن الصغير من العالم اعتقد أنه سينأى عن جرحه القديم. ولكن لامفر، فها هو كاظم يحيي فيه ما اعتقده مات. وللمرة الأولى منذ ٧٨ يفكر في كتابة قصيدة، وإذ تخطر تلك الفكرة بذهنه يضطرب، فهو على يقين أنه من غير الممكن استعادة صالح القديم، لقد تهدم مثل صحنٍ ولا ينفع إعادة ترميمه، ستبين تصدعاته في كل مكان. شعر بواجب ثقيل يلقى على عاتقه. ولكن أليس هو فرح من طرف آخر، بسبب تفكيره بكتابة قصيدة؟ هل كان الشعر هواءه النقي المفقود؟ وحتى كاظم خمن ذلك، وإلا لماذا قال له:

- راح أكون سعيد إذا عدت لكتابة الشعر.

الشعر، الشعر، نعم ياصديقي. ابتسم صالح لكاظم وقال:

- أشكرك كاظم.

صمتا لفترة غير قصيرة، فأردف صالح:

- تعرف سبب زيارتي؟

ودون أن ينتظر جوابه، أكمل:

- انقطعت عن كتابة الشعر.

فأجاب كاظم:

- أنت الوحيد، مع عدد قليل، اللي ما نشر ديوان في وزارتهم، الآخرين نشرت الدولة دواوينهم، هل أعدهم؟ كل الذين نشروا في الوزاره دفعوا الثمن. زائداً، أنت انقطعت عن كتابة الشعر بعد مارس ١٩٧٨، بعد إعدام الواحد والثلاثين.

صمتا لبرهة.

- مع ذلك مع الأسف توقفت عن كتابة الشعر. تعرف؟ كانت قصائد الحب اللي تكتبها تعجبني أكثر من قصائد السياسة. كل ما كتبته عن المرأه جميل. أعتقد أنت عاشق كبير. كانت..

وقف كاظم وكأنه تردد في كلمة الحديث. أخرج آهة عميقة وأكمل:

- كانت قصائدك تعجب زوجتي سميرة أيضا، كانت تحتفظ ببعض القصاصات، كنا نغنيها مع بعض.

لم يحافظ صالح على صمته هذه المرة:

- أعتقد زوجتك معتقلة، صحيح؟

فهز كاظم رأسه بالإيجاب:

- ممكن أن تقول مسجونة. جاءوا قبل أربعة أشهر، هذه المرة بملابس الممرضين، ادعوا بأن عندهم ورقة وتقريراً طبياً يقول إنها مجنونة ويجب أخذها إلى الشماعية، مبررين قولهم إنها تشتم الدولة علانية بمناسبة وغير مناسبة.

صمت، ثم أكمل:

- تعرف الشخص اللي حركهم؟

فوجد صالح نفسه يجيب بصورة أوتوماتيكية:

– حضرة المحترم عصام ماهود.

في تلك اللحظة هدأت اضطرابات صالح وجف عرقه وكأنه بحاجة إلى ااك القصة. شعر بحميمية إلى هذا الرجل الذي ذكره بقصائده التي نسيها، إنه يعيدها إلى ذاكرته دفعة واحدة. لم يوقع عام ٧٨ التعهد فقط، إنما عهد مع نفسه ألا يكتب بعدها حرفاً واحداً. أراد أن ينتهي من هذا ا «صالح» الشاعر، كمن يبحث عن شخصية جديدة. ممثل يبحث عن دور جديد. لماذا يثير كاظم فيه ماضيا كان يعتقد أنه انتهى من دفنه؟ يستحوذ عليه شعور ذلك الذي يسير في جنازته الآن، فحتى تلك الظهيرة كان يعتقد أنه الشخص القديم فيه، لا لأنه جبان، أو لأنه بلا موقف، إنما لأنه تعب ببساطة. تعب، وما عاد يطيق، قال لنفسه ببساطة «آن لك أن تستريح»، وعندما اختار هذا الركن الصغير من العالم اعتقد أنه سينأى عن جرحه القديم. ولكن لامفر، فها هو كاظم يحيي فيه ما اعتقده مات. وللمرة الأولى منذ ٧٨ يفكر في كتابة قصيدة، وإذ تخطر تلك الفكرة بذهنه يضطرب، فهو على يقين أنه من غير الممكن استعادة صالح القديم، لقد تهدم مثل صحنٍ ولا ينفع إعادة ترميمه، ستبين تصدعاته في كل مكان. شعر بواجب ثقيل يلقى على عاتقه. ولكن أليس هو فرح من طرف آخر، بسبب تفكيره بكتابة قصيدة؟ هل كان الشعر هواءه النقي المفقود؟ وحتى كاظم خمن ذلك، وإلا لماذا قال له:

– راح أكون سعيد إذا عدت لكتابة الشعر.

الشعر، الشعر، نعم ياصديقي. ابتسم صالح لكاظم وقال:

– أشكرك كاظم.

صمتا لفترة غير قصيرة، فأردف صالح:

– تعرف سبب زيارتي؟

ودون أن ينتظر جوابه، أكمل:

– بالتأكيد سمعت بانتحار سامية ماهود. أنا من طرفي لا أعرف المرأه، لكن انتحارها يؤرقني، لأنه يبدو لي غريباً تماماً، خاصة وأن أخاها هو السلطة مثلما تعرف، أيضاً سمعت أنها صديقة ماجدة عبد الحميد،

توقف قليلاً، لأنه نفسه لاحظ تلعثمه عندما وصل إلى هذه الجملة.
– الأغرب أن ماجدة هي خطيبة عصام ماهود.
مرة أخرى توقف لشعوره أنه لايلقى الأمور بتتابع منطقي.
لم يمهله كاظم هذه المرة ليكمل، إذ سأله فجأة:
– ما الغريب؟

لقد فوجئ بالسؤال، ولأنه لم يكن مهيأً له، أحجم عن الكلام، ولكن هناك في داخله مايجعله يعتقد بغرابة الخطبة. إنه هاجس لا أكثر. لم يعرف ماجدة منذ زمن طويل، ولكن لها حضور في الصف يفوق الأخريات. وجد كاظم نفسه مضطراً أن يقطع الصمت:

– أعتقد أنك تتفق معي أن الإنسان يحمل تناقضاته معه. ماجدة بنت تربت في وسط معين، في هذا المجتمع، تعرف ما معنى ذلك؟ يعني أدخلوا في رأسها، مثلما أدخلوا في رأس الأخريات: أنت امرأة عليك بالزوج الناجح. يعني النفوذ والجمال، الحليفان القاتلان. وفي حالة عصام فالأمر سهل، لأنه لم يظهر خشونة علنية، أبداً يحاول منح الانطباع بأنه العاشق العادل اللطيف.
توقف قليلاً ثم تابع:
– سأقول لك بسر غير متأكد منه. أن عصام يظهر هذه الرقة بسبب أخته، لا أدري، من الصعب إيجاد خيط قوي، ولكن هناك فقط شكوك. الاثنان تربيا في جو غريب، وكانت علاقتهما غريبة بعض الشيء، هناك أقاويل تتحدث عن غيرتها من علاقاته، حتى إنها كانت تحاول تخريب كل

علاقة، ثم هناك..

مرة أخرى توقف، ولكن هذه المرة تردد أكثر، فلاحظ صالح تردده:

- أكمل.

عاين كاظم وجه صالح، كأنه يريد التأكد من ردود فعله:

- يقولون إن عصام فض بكارة ماجدة، لهذا السبب انتحرت، فهي لاتريده أن يتزوج.

لاحاجة لكاظم أن يسأل. فيما إذا كان عليه إكمال حديثه أم لا، فقد لاحظ وجه صالح الذي غادره الدم، فيما سرت به رعشة خفيفة، جعلته يكور جسمه ويجمعه كحزمة بين ذراعيه اللتين التفتا حتى جنبه. هكذا ظل صالح محافظاً على وضعه، مخفياً رأسه بين فخذيه اللتين ارتفعتا حتى حنكه. لقد أحس أن كل شيء يتهدم. لقد أخذته المفاجأة، حتى شعر أنه يجلس وسط دائرة، ليس هناك طريق إلى الخارج، إلى الداخل، إلى ماحول، بل إنه كره كاظم في تلك اللحظة. يفور غضبه، فيلاحظ كاظم وجعه:

- صديقي، إنها الحقيقة، ولكن ماجدة فسخت الخطوبة.

الحقيقة، ولكن أية حقيقة؟ حقيقته هو المهشم؟ إذن ابك ياصالح، أو اضحك، بل إصحبكي، ها أنت تركب فعلاً جديداً، لم يركبه أحد من قبلك، بل تستطيع تركيب ما شئت من الأفعال طالما لاتستطيع فعل شيء في الواقع. ما الذي تخافه بعد؟ أين مشاريعك المقتولة، أحلامك؟ ألم يسرقوا منك أيضا زوجتك حامدة في بغداد وجعلوا منها عاهرة وقوادة في مبنى الإذاعة والتلفزيون؟ ها أنت مرة أخرى في المصيدة.

لبرهة قصيرة وقف وسط الغرفة مثل ممثل مسرحي:

- كاظم لم يبق شيء حتى الأحلام قتلوها

وقبل أن يسمع جواباً، تناهى إليه طرق على الباب فسأل كاظم، فيما إذا كان ينتظر أحداً. نفى كاظم ذلك بإشارة من رأسه. وقبل أن يفكرا في القادم، فاجأهما عوف، الذي دخل لاهثاً وتوجه إلى زاوية الغرفة، جلس واضعاً شعره الأشقر المنقوش بين يديه، فيما راح يتمتم:

– أولاد القحبة، أولاد الكلب.

وعندما سأله كاظم عما حصل، بدأ عوف بسرد القصة:

لم يذهب ذلك اليوم إلى المدرسة (لم يلاحظ صالح غيابه) بعد سماعه تكليف عصام ماهود للشرطة بالبحث عن خليل، باعتباره من قتل سامية. لقد عرف ذلك تلك الظهيرة عن طريق أبيه الذي خرج عن أطواره ذلك اليوم تماماً، لأن عصام صارحه في حالة عدم عثوره عليه سيعتبر نفسه مطروداً من الخدمة. لم يشأ الأب الدخول معه في تفاصيل انتحارها، لأن عصام كان مأخوذاً بـ الفكرة، كان في حاجة إلى كبش فداء سريع، ومن يمنحه هذه الإمكانية غير خليل، الذي لسوء حظه حاول التحدث معها ذات ليلة عندما لاحظها تقترب من بيت عبد الحسين الدلال، مما جعلها تصرخ طالبة النجدة، مبالغة بالأمر بأنه كان ينوي اغتصابها. من العبث إقناع عصام ماهود أنهما حادثتان مختلفتان، فهو طرد حتى الطبيب الشرعي الذي تحدث عن انتحارها. ذلك اليوم دخل عوف أيضاً في شجار حاد مع أبيه، عندما واجهه بما تتحدث البلدة عنه وعلاقته بها، وإذا كان قتلها أحد، فلا يكون غير أمه. فصرخت أمه قائلة:

– تخبل الولد.

صفعه أبوه وطلب منه مغادرة البيت. خرج عوف متجهاً إلى كوخ خليل عند أطراف الناحية. أراد أن يسبق أباه، الذي توجه إلى مخفر الشرطة

أولاً لتجهيز حملته.

قطع الطريق إلى خليل بسرعة كبيرة، ولحسن حظه أدرك الزورق البخاري الذي يذهب إلى الأهوار القريبة، والذي يمر بكوخ خليل، الذي بناه عند تفرع دجلة إلى نهري البتيرة والعمارة.

كان خليل مستلقياً على حصيرة متهرئة عندما رأى عوف يسير باتجاهه، فوقف وفرد يديه مثل جناحين، وقال:

– جيت حتى نطير؟

فأجابه عوف:

– لا طيران ولابطيخ. خلص نفسك اليوم.

بدا خليل حزيناً لسماعه الخبر. حاول عوف إقناعه بالاختفاء فوراً، إذ لاينفع عناده، وإصراره على مواجهتهم جميعاً. وافق خليل على مضض. خرج من الكوخ وتبعه عوف حتى وصلا النهر. صعد خليل إلى مشحوف ربط هناك، صعده، وقبل أن يتحرك طلب من عوف أن يطير لأنه سيرجع ذات يوم ويحرق البلدة. لم يطر عوف، إنما عبر النهر في الأول سباحة ثم قطع المسافة الباقية سيراً على الأقدام، وعند مدخل الناحية لمح سيارات الشرطة تسرع باتجاه النهر.

نهض عوف من مكانه وقال بصوت حزين:

– جئت أحذركما.

ثم وهو ينظر إلى كاظم:

– خاصة أنت كاظم، عصام وأبوي يعرفان علاقتك بخليل.

سأله كاظم، عما ينوي فعله:

– ما أدري.

ثم عاين صالح لبرهة:

– أستاذ صالح اعتبر المدرسة قضية منتهية بالنسبة لي.

وغادر بسرعة.

لم يعلق صالح وكاظم بشيء، ظلا محافظين على صمتهما لدقائق، ليتحرك صالح باتجاه الباب. صاحبه كاظم إلى هناك. وقبل أن يخرج سمع صوت نهار يأتي من تحت النخلة:

– عمو راح تزورنا؟

فالتفت إليه وابتسم قائلاً:

– بالتأكيد.

أغلق الباب خلفه وخرج إلى الشارع. كانت شمس الظهيرة قد زادت من لهيبها، وسكن كل شيء في تلك الساعة، إذ أسلم الناس أنفسهم إلى نوم القيلولة. حتى الهواء بدا ساكناً، لم يفاجأ بالسكون، إنما فاجأته تفسيراته، فقد كان يرتاب من كل حركة، حتى إنه جفل مرة،بل مرتين أثناء سيره، بسبب حركة القطط التي كانت تمارس عملها اليومي في البحث عن قوتها في صفائح النفايات، عند حيطان البيوت. لم يشأ سماع حفيفها فقط، إنما كان بوده سماع ضجيج موائها. كلا، هناك ما يثير الريبة في كل شيء حتى بدت له المسافة من بيت كاظم حتى بيت جدته مثيرة للخوف. هل يخاف مطاردتهم له؟ ربما يكونون قد تابعوا خطوات عوف حتى بيت كاظم؟ هل عوف أكثر شجاعة منه؟ هل هرم بهذه السعة؟ مع كل خطوة تزداد دقات قلبه، كمن يتوجس أمراً مخيفاً سيحدث، سيحمل معه الأنين؟ يحس بازدياد عرقه، هل هي هلوسة تشبه تلك الهلوسات التي كان يعيشها في بغداد في سنوات الملاحقة الأخيرة؟ أم هو على مطب الجنون؟ هل سيطير كما طلب منه خليل، أم سيشد نفسه مرة أخرى إلى خيط آخر، سينقطع مثلما انقطع مع حامدة؟ «ماجدة، خيط الحياة الأخير» عنوان جميل لقصيدة جديدة. ولكن لماذا يغزوه هذا الهاجس، وهو لم يفقد ماجدة بعد؟ هل

نبدل شعوره تجاهها بسبب فض عصام لبكارتها؟ لقد قرأ ذات يوم أن «غشاء البكارة» هو غشاء مخاطي دائري. وعند دائري توقف، محاولاً التذكر. فيما إذا كان قد قرأ «حلزوني». همس في داخله: لافرق. غشاء البكارة هو غشاء اجتماعي تضعه المجتمعات الحلزونية، وهو لماذا يغضب؟ هل لأنه جزء من هذه المجتمعات؟ وإلا لماذا لا يمخط عليها؟ يدوخ، ويعرف أن الأمر يختلف هذه المرة، ليست القضية قضية غشاء بكارة، إنما أبعد. لم يثقب عصام ماهود الغشاء، إنما انتهك واغتصب مجالاً محرماً عليه. ولكن من حرمه عليه؟ هل وافقت ماجدة؟ يقيناً لا. لكنها كانت خطيبته؟ لا يهم. يقيناً أنها لم تقبل. لايدري من أين يأتيه اليقين، إنه مجرد حدس، وكثيراً ما صدق حدسه، وإذا صح، فإن عصام مارس فعلاً من أفعال التعذيب سواء مورس في السجن أو في غرفة أو في الشارع أم في سيارة. الاغتصاب فعل يمارسه المغتصب بحماسة جلاد، مثلما يمارس الجلاد التعذيب بلذة مغتصب. كل جلاد هو مغتصب، وكل مغتصب هو مرشح أكيد لجلاد. وعصام ماهود يجيد الممارستين.

دخل دار جدته، أغلق الباب خلفه وسار متجهاً إلى غرفته. سمع همساً خفيفاً، اقترب بوجل، توقف فجأة عندما رأى ماجدة تجلس مع جدته. احتار بما يفعل، لكن جدته لم تمهله وقتاً طويلاً، نادته:

– جدة صالح ادخل.

ثم سمعها تخاطب ماجدة أثناء نهوضها:

– جدة أتركك بالسلامة.

وحين خرجت، توقفت للحظة بجانبه، ضربته على كتفه، دون أن تخفي ابتسامة ارتسمت على ثغرها، ثم لتختفي تاركة ليس ماجدة وصالحاً وحدهما، إنما صمت يسود المكان.

انحنى صالح ليخلع حذاءه. اتجه نحوها، ليجلس بجانبها. لبرهة ظلا محافظين على صمتهما، يعاين أحدهما الآخر، وإذا ما كان هو مايزال تحت تأثير ظهيرة غير عادية، فإن ماجدة كانت مضطربة هي الأخرى، إذ منذ أن ودعته عند باب الصف، وفي ذهنها لمعت فكرة زيارته هذا اليوم، بل إذا ما راجعت ذاكرتها، منذ انتهائها من قراءة «الليالي البيضاء» وهي تفكر في الحديث معه دون وجود طلاب الصف. لقد عمق الكتاب عندها شعوراً تكنه تجاهه، فهي تدري كيف أنه ومنذ اليوم الأول قد أثار رعشة خفيفة، رعشة سرت في الأخمص مارة بالظهر، لتصل حتى الرأس، حتى أن عينيها رجفتا تلك اللحظة. وفي اليوم الأول حدقت بوجهه بدقة، كأنها أرادت الاحتفاظ بصورة ثابتة له: شفتاه العريضتان، قامته الجميلة، يداه الناعمتان، شعره الأسود المجعد. لم تنظر إلى عينيه طويلاً، فقط عاينتهما بعجالة، لم تر غير بريقهما البني الذي بعث فيها بعضاً من الخوف. هل هناك شبه بينه وبين أخيها رعد، بالرغم من فارق السن، فهي قد خمنته قد دخل الأربعين للتو؟ ولو سألها صالح « ماذا يعجبك في» ؟ فبماذا تجيبه؟ تعرف فقط، أن وجدها كان يزداد كل درس، كما أنها حدست تعلقه بها هو الآخر، وإلا لماذا سلمها «الليالي البيضاء» ؟ لماذا ارتعش صوته حينها، وبدا وجهه متعباً؟ ولماذا الليالي البيضاء؟ وعندما فتحت الكتاب في البيت كانت تلتهم صفحاته بسرعة. كانت المرة الأولى التي تقرأ فيها كتاباً لدوستويفسكي، تذكرت أنها غالباً ما لمحت بعضاً من كتبه عند رعد. وكم حثها على قراءته، هي الكسولة، لم تجد باعثاً للقراءة، وكانت تعتبر ذلك شأناً من شؤون رعد. لم تقرأ في حياتها سوى كتب جبران خليل جبران وروايات جورجي زيدان والمنفلوطي. ولكن ذلك اليوم قررت إخراج الكتب التي خبأها رعد في كارتونات متفرقة تحت السرير. فوجدت المجموعة الكاملة لدوستويفسكي دون عناء. في تلك الليلة أيضاً قررت قراءة كل أعماله. لم تنم تلك الليلة

حتى كانت قد أنهت الرواية التي احتضنتها. هكذا غرقت دون وعي منها في إغفاءة عميقة. مع تحركها فوق الفراش، تحركت ورقات الكتاب. وبصورة ما وجدت نفسها كذلك الذي يعيش لحظات احتضاره الأخيرة، فقد استحوذ عليها وهن غير عادي، وهن يجعل كل أعضاء جسمها تتوقف عن الحركة، كل شيء يتوقف، حتى جفنيها الذين ارتجفا بادئ الأمر، يصبحان ثقيلين، مثلما لاتستطيع رفع رجليها أو تحريكهما كأنهما انغرستا في مكانهما، كأن ما من قوة في العالم تستطيع انتزاعها حتى وإن حاولت الإفلات، كأنها خيطت أو ألصقت في الفراش. ما الذي حصل؟ تحاول إخراج صوتها لتستغيث، تشعر بجفاف حنجرتها. عطش. في مكان ما، عند زاوية عينها اليسرى تكتشف فجأة ثقباً صغيراً، فتفرح، ولكن لايدوم فرحها إلا لثوان، فمن خلال ذلك الثقب بالذات تصلها حزمة من الظلام، عكس اعتقادها كونها ضوءاً في الأول. بدأ الظلام يثقل ويثقل. كل شيء يصبح ثقيلاً. لا طاقة لها على حمله، هي التي كانت مسكونة بالطيران، تشعر أنها سمرت إلى فراشها. في لحظة ما تستسلم وتردد مع نفسها «خلاص، أنت ميتة لامحالة» بالرغم أنه لا أحد يستطيع التحدث عن الموت، لكن قناعة غير عادية استحوذت عليها، تقول لها إنها ميتة. بل كل شيء يوحي بذلك، حتى تلك الفتحة الصغيرة استبدلت مكانها وانتقلت إلى العين اليمنى. فكرت، إن لم يكن الموت، فلماذا لاترى أي لون، أو تستنشق، أية رائحة؟ كم كان بودها شم رائحة رعد مثلاً؟ في تلك اللحظة بالذات بدأت تشعر بليالٍ بيضاء تهبط فوقها على شكل ألوان مختلفة، ولكنها مجرد تنويعات للأبيض. تمد يدها للمسها، كانت على يقين أنها أجسام مرئية. تهرب منها تلك الألوان هذه المرة متخذة أشكال بالونات بيضاء، ومرة أخرى تعتقد أنها ميتة. وإلا لماذا لا ترى غير تنويعات للونين الأبيض والأسود. من يدري، ربما بقيت تلك الليلة على حالها لفترة طويلة، لو لم ينفتح أمامها صندوق كبير. حدقت

فيه بفضول، فاكتشفت رجلاً ملتحياً أخفى وجهه بين كفيه، هجمت عليه بسرعة، وكأنها عثرت أخيراً على منفذ من ورطتها، هزته، غير مصدقة أن هناك من سينتشلها من موتها المحقق، فهي لم تشأ أن تعيش تلك اللحظة كلحظة حلم فقط، إنما كحقيقة. ولكن الرجل يخرج صوتاً حزيناً منكسراً: اهدئي!». هدأت بالفعل ذاعنة لما يريده، منتظرة ما يلقيه فمه. لكن الرجل حافظ على صمته. لماذا لايقول شيئاً آخر؟ حدقت به مرة أخرى بتمعن واندهاش، تذكرت أنها تعرف الوجه من قبل. كانت فرحة لاكتشافها، فللمرة الأولى شعرت أنها حية، كما أنها بدأت بتمييز الألوان، لتفتح عينيها على صورة الرجل الملتحي على غلاف الكتاب «دوستويفسكي».

كانت شمس الصباح قد توغلت من شق جانبي تركه انحسار الستائر. نهضت من فراشها بسرعة. لم تفطر كالعادة، إنما اكتفت بقطعة صغيرة من الخبز مع إستكان من الشاي، وضعت الكتاب في حقيبتها، وقد استحوذ عليها الحماس بلقاء صالح. كانت تفكر طوال الطريق بالرواية، بل لم تتذكر عصام ماهود إلا عندما اقتربت من تقاطع الشارع مع شارع المدرسة. حيث اعتاد أن يقف بسيارته. وعندما لم تجده ذلك اليوم لم تشعر بالخيبة، على العكس. كان من الممكن أن تظل محافظة على نشوتها ذلك اليوم، لو لم تلتق مدير المدرسة عند مدخل المدرسة، والذي قال لها مباشرة، دون مقدمات:

– أعتقد سمعت بخبر انتحار سامية ماهود!

وعندما رأى المدير تبدل سحنتها، قال لها المدير:

– إذا عندك رغبة بعدم الدوام فمسموح لك الغياب.

لم تعلق ماجدة، إنما اتجهت إلى الصف، أو بالأحرى قادتها رجلاها إلى هناك. دخلت الصف وكأنها مخدرة، شعرت بقواها تخور، وبكل تلك

النشوة تتحطم. لم تستطع نسيان هذه المرأة بسهولة. حاولت كتم حزنها وغضبها ذلك اليوم، فبقيت في المدرسة بالرغم من اقتراح المدير. وإذا عانت من صعوبة في الدرس الأول، فإن التوتر خف منها بعض الشيء في الدرس الثالث، لأنها ذهبت بعد الحصة الثانية لتتقيأ في المغاسل. لقد تقيأت بقوة وبحرقة، بل بألم. مع القيء انزاح ثقل جثم على صدرها. وفي درس التاريخ كانت أكثر هدوءاً راحت تفكر بسامية، أي نوع من النساء هذه المرأة، ولماذا انتحرت؟ كانت سامية امرأة غامضة لسكان الناحية. وبالنسبة لماجدة من الغلط ربط سلوكها كله مع تصرفات عصام. لايعرف الناس الكثير عن حياتها السرية، إنما رأوا فيها فقط المدافعة المتحمسة عن أخيها في كل سيئاته، بالرغم من وقوفها ضده في الكثير من الأمور، تسفير عبد الحسين الدلال مثلاً. وعندما طلبت منها ماجدة ذات يوم أن تعتذر أمام الناس عن بعض سلوكيات عصام، أجابتها إنه أمر مستحيل، وإذا ما سألتها ماجدة إنها لاتفعل ذلك بسبب كبريائها، لا تجيب، إنما تكتفي بالبكاء. لقد عرفت ماجدة الوجه الآخر من سامية، بل بإمكانها القول، بأنها الوحيدة التي عرفتها. لقد عرفت تلك الصبية التي حاولت أخذ دور الأم بعد اختفائها، ربما يمكن لهذا السبب تفسير عدم تحمسها للبحث الجدي عنها: أولاً تعلقها بأخيها الذي عبرت عنه بأكثر من مناسبة، والذي لاتريد أن تغيره أمها، ثانياً أن تكون هي المسيطرة على البيت، إذ من الصعب عليها التنازل عن سلطة اكتسبتها بحكم إختفاء أمها، بالرغم من أنها لم تكن السيدة الفعلية الأولى في البيت إلا بعد هروب زوجة أبيها مع أحد المهربين. كل تلك الأسباب وربما لغيرها لم تبح بها لماجدة، لم تتزوج سامية. كان يكفيها أخوها. وفى صميمها كانت تبحث له عن المرأة التي تسعه، ولكن التي لا تنافسها على تلك السلطة. لهذا لم تقبل ماجدة في البداية، كانت تعتقد أنها مسكونة بالسلطة مثلها، لهذا لم تقبل صداقتها، إلا عندما تيقنت أن السلطة ليست

هي هم ماجدة الأساسي. ولكن من طرف آخر، كانت سامية تكن احتراماً غير معلن للنساء القويات، بشرط ألا يزاحمهن على السلطة. كانت توحي لماجدة، أن علاقتها مع عصام ستنتهي رغم تمنيها بقاءها.

لم تحقق أمنية سامية، إذ تهدمت خطبة الاثنين، ومنذ تلك الظهيرة الساخنة التي دخلت فيها ماجدة بيت ماهود للمرة الأولى والأخيرة، لم تلتق الاثنتان إلا مرة واحدة، عندما حاولت سامية التوسط بين الاثنين. بالرغم من إصرار ماجدة على عدم لقائها، إلا أنها حاولت السلام عليها عندما رأتها في سوق المدينة، عبثاً صاحت بها، إذ استقلت سامية السيارة التي كان تنتظرها بسرعة. لقد شعرت ماجدة ذلك اليوم أن سامية تتجنب رؤيتها هي الأخرى، ولكن لماذا؟ تساءلت ماجدة في سرها، هل لأنها تريد عصام لها وحدها؟ مازالت تتذكر كيف أنها امتعضت عندما روت لها قصة اغتصاب عصام لها. لم تفهم ماجدة رد فعلها على الإطلاق، ففي النهاية هي بكارتها وليست بكارة سامية. ثم أليس هي الأخرى ليست بكراً، كما تتقاول نساء الناحية؟

لقد ندمت ماجدة لأنها لم تسألها تلك الأيام عما سمعته من سكان الناحية، عن علاقاتها بالرجل الخمسيني عبد الحسين الدلال، الذي يقال إن عصام لم يسفره بسبب أصله القبليّ ورغبته بالسيطرة على علوة الخضرة، إنما بسبب علاقته بسامية. من الغريب أن سامية لم تفعل الكثير من أجل منع تسفيره، إنما اكتفت بالدفاع عنه، لكونه رجلاً مستقيماً، يساعد الفقراء، يرسل كل جمعة خروفاً مذبوحاً إلى جامع المدينة. وعندما سفر لفها حزن عميق، ويقال إنها تبدلت تماماً، ولم تعد سامية القديمة، كانت شبه يائسة، ربما – يقول البعض– لهذا السبب علقت نفسها عند باب البيت، فالرجل ماتزال تسكن روحه البيت. لكن ماجدة لاتجد في سهولة الاستنتاج المتداول

راحة، فقد وجدت نفسها للمرة الأولى في مواجهة انتحار أحد قريب منها، لذلك فكرت من ضمن ما فكرت سؤال صالح.

بالفعل هذا ما فكرت به، عندما دخلت بيت ماتنراد، جدة صالح.
كانت العجوز جالسة في غرفتها منشغلة بتطريز عباءة سوداء بين يديها، والتي صاحت عندما لمحت ماجدة:
- زمان طويل وأنت ما دخلت البيت!
ضحكت ماجدة، واتجهت لتأخذ مكاناً بقربها، قبالة المروحة الأرضية.
سألتها ماتنراد:
- خير إن شاء الله؟
ارتبكت ماجدة قليلاً، وهجست إن الدم يغادر عروقها:
- صالح في البيت؟
فأجابتهاالعجوز:
- لا، خير إن شاء الله.
لا تدري لماذا لم تجد هذه المرة صعوبة في إخراج الجملة من بلعومها:
- جدة، أنا أحب صالح.
ظلت ما تنراد منكبة على عباءتها، وكأنها تعرف ما قالته ماجدة منذ مدة طويلة، فعلقت وهي تلضم خيط الإبرة:
- تدرين جدة، صالح متزوج؟
وماجدة التي فوجئت بالجواب، حاولت إخفاء اضطرابها ودهشتها، لذا جمعت قواها لتمنع الغصة التي وقفت عند البلعوم. لم تشأ أن تلاحظها العجوز، فقالت مكذبة:
- أعرف، لايهم.

حملقت العجوز، بدت نظراتها شكاكة، فيما استمرت أصابعها في دفع الإبرة:

– أنت أعرف.

صمتت بعدها، ثم توقفت عن عملها لبرهة قصيرة، امتدت يدها لتلمس ذراع ماجدة، ثم لتعود إلى عملها وقد بدأت تحدث ماجدة:

– تدرين أبو سلطان، رجلي الله يرحمه، تزوجني الثالثة على نسوانه، الأولى حنينة، الثانية فرحة. كلنا كان عندنا رجولتنا. أبو سلطان، خلف، ما كانت تعجبه غير المتزوجة. إذا شاف وحده وعجبته، أول ما يسألها، أنت متزوجة؟ عنده حق، المتزوج بعد فترة يمل، يحتاج تبديل، يريد يشم ريحة جديدة.

صمتت ما تنراد. فتحت ماجدة شعرها، بعد أن كانت قد شدته بكماشة شعر، لتمنحه هذه المرة الحرية بالتحرك تحت هواء المروحة الذي يرفعه بعض المرات، والذي كان ينيم أجفانها في المرات الأخرى. كانت ماجدة تصغي إلى العجوز بكل حواسها، فقد أثار حديثها دهشتها، ووجدت نفسها متخلفة بكثير عما تقوله ما تنراد:

– المهم اللي تريده الروح. الكلب آخ من الكلب. كلما أسمع خلف يغني ينمرد كبدي، أفتح باب البيت، أعاين عليه وجماعته، غنى ودك إصبع. وين راحت هذي الأيام. مرة من المرات شافني، سألني: متزوجة، هزيت راسي. ضحك وجاوبني، أنت حلوة أروح فدوة لعيونك. عرفت قصده. اليوم الثاني جمعت غراضي، تركت رجلي وتبعت خلف. تركنا السلف.

توقف لبرهة، أخرجت آهة قصيرة، ثم تابعت:

- اجينة لكميت، الله يرحمه ما بطَل من النسوان. ينام وية الواحدة أربع خمس مرات، يخليني أصيح وصوتي يوصل لنهاية الطرف. كان يضحك، يكول الله وصى بسابع جار.

لم تجد ماجدة الثقة لتسألها، من أين جاءتها تلك الثقة عندما جمعت ملابسها وتبعته دون خوف. خشيت ربما لن تفهم سؤالها. ولحسن الحظ رأت صالح في تلك اللحظة يقف عند باب الغرفة. نسيت حديث العجوز، بل نسيت كل شيء ووجدت نفسها خائرة القوى منهكة.

لاتدري كم مر على صمتهما المشترك بعد مغادرة العجوز لهما. كان هو صالح الذي بدأ في الحديث:

- تعتقدين أن عصام ماهود راح يتخلى عنك بسهولة؟

لم تجب، فأضاف:

- إذا كانت سابقاً سامية تقف بوجهه فهذه المرة لا.

ظل وجهها محافظاً على صفاء غير عادي، بل عبرت ملامحها عن شعور هو خليط من الغبطة والحزن، فيما أظهر الخطان الغائران عند ارتفاع خديها الممتدان بالضبط من عينيها العسليتين حتى فمها الدائري ميوعة جميلة حملت صالح على السكوت، لم يدر بالضبط، فيما إذا كانت هي حزينة أم فرحة. لبرهة جاءه صوتها خافتاً، هادئاً كنسمة الهواء التي تبعثها المروحة الدائرة في الغرفة:

- ماذا تعني الليالي البيضاء؟

ابتسم وأجابها:

- في شمال الكرة الأرضية، عندما تدور الأرض حول نفسها وحول

الشمس يبقى الجزء الشمالي منها محجوباً عن الشمس، يدور حول نفسه فقط، لذلك تبقى هذه المنطقة مظلمة، رغم بقاء الشمس مشرقة لمدة أسابيع. يطلق على تلك الليالي التي تبقى الشمس فيها مشرقة أربعاً وعشرين ساعة اسم «الليالي البيضاء».

فعلقت ضاحكة:

– ياريت تكون ليالي كميت بيضة.

فعلق صالح بسخرية ممزوجة بالحزن:

– إلا إذا أصدروا أمراً حكومياً بتغيير موقع كميت من الكرة الأرضية.

سكتا.

– أعجبتك القصة؟

فأجابته:

– جميلة. لكن ليش ما راحت البطلة في النهاية مع الراوي؟

فأجابها، فيما ظل صوته محافظاً على نبرة حزينة:

– لا أدري.. لو انتهت القصة نهاية سعيدة تكون مثل باقي القصص اللي تنتهي بزواج سعيد.

نظرت إليه، كانت نظراته تحملق في الفراغ هذه المرة. لمست يده:

– مثل قصة زواجك؟

حدق بها مشدوهاً، لقد فاجأته بالفعل.

– ماكان قصدي جرح مشاعرك.

وحين لاحظت نظراته المستفسرة، قالت:

– أقصد ضروري أن تكون كل قصة حب تراجيدية؟

في تلك اللحظة كفا عن الحديث، وشعرا بحرارة تصعد في أجسامهما، وكأن سياط أشعة الشمس اللاهبة في الخارج امتدت لتلفحهما،

هما الجالسان في الغرفة، اللذان عرقت جبهتاهما فجأة، وكأن المروحة التي راح صوت استدارتها يخفف مسلماً نفسه لحركة أنفاسهما اللاهثة. من أين تأتي تلك الحرارة، وقد أغلقت العجوز باب الغرفة لتمنع تسرب الأشعة من خلالها؟ بل ما الذي يجعلهما يصمتان مرة أخرى؟

ولبرهة شعرا بجسديهما معلقين بالهواء، ودون أن يبذلا جهداً كبيراً وجدا نفسيهما يتحركان الواحد باتجاه الآخر، يحتضنان بعضهما، ينضان الثياب بعيداً لينزلقا فوق البساط المزركش بألوان مختلفة، والذي يكتسب مع تقلبهما رطوبة تزداد مع ازدياد حركتهما. مع استدارة المروحة وخفقات هوائها، تخفق تأوهاتهما، وإذا ما اختفت مع حركة الهواء في إحدى زوايا الغرفة، فإنما لتستعيد نفسها مرة أخرى مع استدارة المروحة إلى الجهة الأخرى. خفق الهواء فوق جسديهما المعروقين، وتهافتت أصابعهما لتتلمسا طريقها فوق تضاريس مساماتهما، ولتتابع اختفاء آخر القطرات المتبقية هناك، والتي مع التفاف أرجلهما والتصاق بطنيهما تبحث عن طريقها الأخير، تحاول إما الاختفاء بين مساماتهما أو الانسكاب فوق البساط. من الممكن رؤية تلك القطرات المنسابة ببطء، بل بوجل، ولكنهما كانا مخدرين برائحة بعضهما، مسبلين أجفانهما لالحركة المروحة فقط، إنما لتأثير اللحظة، لايهم أن خرجت منها أصوات عالية أم أنين عال، لايهم، فمهما يكن، فلا يعدو الأمر غير همهمات تضل طريقها. لم تتكلم ألسنتهما، إنما كانت شفتاهما اللتان ترتعشان، وجسداهما اللذان يتكلمان، يفعلان ذلك مأخوذين بحماس اللحظة، تاركين العالم نائماً خارج الغرفة الصغيرة التي بدت مظلمة قليلا، حيث كفًا تماماً عن الكلام منذ وقت طويل، مانحين الحرية لمساماتيهما، أيديهما، شعرهما، صدريهما، أفخاذهما، عيونهما. كان الاثنان يضمان بعضهما كأنهما يتعانقان معانقة أبدية.

هكذا ظلا محتضنين أحدهما الآخر للحظات. سكتا. بصعوبة أخرجت ماجدة جملتها:

- راح تكون علاقتنا صعبة.

فأجابها صالح مبتسماً:

- لو كانت علاقة قيس وليلى سهلة لما دخلت التاريخ، ربما كانا متزوجين، تصوري مدام ليلى؟

فرددت ضاحكة:

- لا أحبك بسبب التاريخ يا أفشل مدرس في التاريخ.

وفي تلك الظهيرة عرفا أنهما على حافة اكتشاف عظيم، فلقد بدأت قصتهما الحقيقية الآن. لم يجد صالح حرجاً من رواية قصة زواجه من حامدة لها، كيف أنه تعرف عليها في إحدى التظاهرات في بداية السبعينيات التي هاجمها رجال السلطة والأمن، رغم أنها كانت مؤيدة للتأميم الذي قامت به الحكومة، والتي جرح فيها، وكانت هي تسير بجانبه، سحبته وضمدت جراحه، ليتمشيا بعدها في شوارع بغداد، وبقية القصة معروفة.

سألته ماجدة:

- كنت تحبها؟

أجاب:

- حاولت أن أحبها.

لقد وجدت ماجدة جملته مضحكة. لكنها بدل أن تعلق، راحت تحكي له عن حياتها. لم تتفوه بحرف واحد عن عصام وكأنهما كانا متفقين على ذلك. على العكس، كان يصغي لها بحماس عندما حدثته عن رعد، وكيف أنه هو الآخر في حوزته كتب دوستويفسكي. لم يندهش عندما

أخبرته عن اختفائه، إنما همس في داخله «إذن لم تكن صدفة. إذن لم يشم رائحة حيادية عندها. هل التصقت رائحة أخيها المختفي هناك؟ أليست تلك الرائحة أليفة بالنسبة إليه؟ ولبرهة يدحس أنفه تحت إبطها، ثم يلحس عرقها هناك، ضحكت ماجدة.

- لك رائحة أجمل من رائحة الياسمين.

كان يعرف أنها رائحة المطاردين أو القادمين على فعل عظيم.



مرة أخرى بغداد، بغداد التي يراها بعينين مختلفتين- يدخلها، وكأن الأشهر المعدودة التي مرت على مغادرته، كانت حفنة من السنين. لم تخطر المدينة في ذهنه عندما كان في كميت، إلا في فترات متقطعة. لم يكن يعتقد أنه سيفتقدها بهذا النهم، بل سيتمشى بين أزقتها مغلفاً بالفضول، باحثاً عن أشياء لايعرفها، ممتلئاً بنشوة منفي أو فضول قوي. للمرة تسحره دروب بغداد بهذه الصورة، لو اقترح عليه أحد التجول في أزقتها قبل أشهر لسخر منه.

بجنون غير عادي راح يستبدل الباص بالآخر، مثل الأطفال إلى أحياء لم يعرفها من قبل: العوينة، الكريمات، كرادة مريم، الكرادة الشرقية، الغدير، الصناعة، الطرطران، أبو سيفين، الفضل، القشل، الشواكة، الشعب، ١٤ تموز، الدور، جميلة، حي السلام، المسبح، الثورة. كان فرحاً باكتشافاته، لم يذهب في الأيام الأولى إلى باريه المعهودين سرجون أو صفوان، إذ ربما لالتقى بأحد أصدقائه القدامى هناك، لم يكن متهيئاً للقاء، بالإضافة إلى

تمتعه للمرة الأولى في بارات الباب الشرقي، بالرغم من الشجارات الحامية التي كانت تدور فيها بين وقت وآخر.

فرح بوحدته هذه المرة، كان في حاجة إليها، لايريد الانشغال بأحاديث أخرى، البقاء فقط مع صورة ماجدة في الرأس، ماجدة وحدها، حتى لو جاءت كل قوى العالم لاتستطيع انتزاعها منه، بالرغم من صعوبة أيامهما الأخيرة. وخاصة بعد أن أرسل عصام في طلبه بعد أيام قليلة من ابتداء العطلة الصيفية، ولولا تلك المقابلة، ربما كان قد مكث أياماً أطول في كميت، بالرغم من عزمه على السفر إلى بغداد لإنهاء معاملة الطلاق في كل الأحوال.

عندما أخبره المدير برغبة عصام في رؤيته، فكر أول الأمر أنه عرف بعلاقته بماجدة، حتى أنه فكر بالجمل المناسبة التي سيرده بها لو واجهه بالأمر. كان ذلك أيضاً بأيام قليلة من تناقل الأخبار في الناحية، عن إلقاء القبض على خليل بونة وعوف وقتلهما في الحال بعد محاولة هربهما. لم يتحدث أحد عما حصل للجثث، حتى مدير الشرطة لم يشأ البوح بالسر أبداً، بالرغم من سلوكه الطبيعي الذي لم يتغير، على العكس تمت ترقيته في حفل أقامه له عصام، مقلداً إياه وسام الناحية الأول. رغم شكوك صالح وشكوك كاظم بكل الجعجعة، إلا أنهما كانا متفقين على أن عصام بهذه التمثيلية أرضى غروره على الأقل، أمر يجعله يهدأ بالتأكيد. عبثاً، هاهو يرسل في طلبه، مثلما أخبرته ماجدة أنه لم يكف عن محاولاته بإرجاعها.

دخل صالح إلى مكتبه، محاولاً التظاهر بلامبالاته. كان عصام يجلس خلف طاولة كبيرة. نهض من مكانه عندما رآه يدخل، أخذه بالأحضان ضاحكاً بصوت عال، اضطرب صالح بسبب الاستقبال المفاجئ. أشار له

عصام بالجلوس، فيما اتخذ هو مكاناً بجانبه، ومد يده إلى صندوق مذهب صغير استقر أمامه، فوق منضدة صغيرة، ثم أخرج سيجار هافانا:

– تدخن؟

فأجابه صالح:

– أشكرك لا أحتمل قوة السيجار.

أشعل عصام واحدة لنفسه، ثم نفث الدخان بقوة وقال:

– لايهم. قوية كلش، أعرف.

كان صالح تواقاً في داخله لمعرفة معنى التمثيلية التي تجري. لكنه سكت منتظراً ما يبوح له به.

– تعرف سبب دعوتي؟

رد صالح بفضول:

– لا.

نهض عصام من مكانه وألقى جملته بخطابية بدت لصالح سمجة جداً.

– لسببين ياعزيزي.

تساءل صالح:

– ماهما؟

سحب عصام نفساً عميقاً من السيجار ونفثه ببطء. ملأت رائحة السيجار فضاء الغرفة.

– طبعاً تعرف علاقتي بماجدة؟

بدأت دقات قلبه في التسارع، حتى إنه أجاب بنصف صوته:

– نعم.

ضحك عصام وأكمل:

– نعم؟ كل الناحية تدري بالقصة وأنت تكتفي بهذه النعم؟

سكت. ثم أعقب بنفس السخرية:

- لايهم. لا تحسدني عليها. ماجدة أصعب من كل الشيوعيين، لهذا السبب أحتاج مساعدتك.

فوجئ صالح وتساءل مندهشاً:

- مساعدتي أنا؟

أطفأ عصام هذه المرة السيجار، وترك بقاياه فوق المنفضة التي استقرت هناك.

- نعم مساعدتك. أولاً أريدك تكتب لي رسالة بأسلوبك الأدبي الحلو، لأني أعرف أنتم الشيوعيين عندكم أسلوب بالكتابة يحسدكم الواحد عليه.

سكت لدقيقة، ربما ليمتحن رد فعل عصام، ثم أكمل:

- القضية الثانية هي حسيبة، أنت تعرفها.

هذه المرة جرب صالح أن يجيبه بطريقة ملتوية:

- لا وداعتك ما أعرفها، ممكن تشرح لي وضعها؟

ضحك عصام في الأول، لكنه عبس فجأة، ثم اقترب من صالح ليعاود الجلوس بجانبه:

- تتغابى علي أستاذ صالح؟

فأجاب صالح بافتعال:

- مستحيل.

ضربه عصام على فخذيه ضربة خفيفة:

- راح تتعرف عليها، مدير المدرسة راح يوصفلك بيتها. أرجوك حاول تروح مرتين ثلاث هناك، حاول أن تشيع في الناحية بأن عندك علاقة بها.

جمع صالح قواه وتجرأ ليسأل:

- ممكن أعرف السبب.

فأجاب صالح بحدة:

– أستاذ صالح ماكو أحد يسأل عصام. نفذ ثم ناقش.

ثم نهض وكأنه يريد إعلان انتهاء المقابلة. من طرفه نهض صالح أيضاً. عندما وصلا إلى الباب، قال له عصام:

– أعطيك مدة أسبوعين لكتابة الرسالة، أما زيارة حسيبة، فآمل أن تزورها بكرة،لا تنس مرتين أو ثلاثة.

لم يزرها بالمرة. لم يزرها لأنها حسيبة، أو لأنه طلب منه ذلك، كلا، كان هذا أمراً ثانوياً بالنسبة إليه. لم يزرها لأنه أصلاً لم يجد في الذهاب إلى «البورديل» أو النوم مع عاهرة شيئاً رومانسياً مثلما كان يظن الكثير من أصدقائه في بغداد. كان يقول لهم، لقد اختلف الأمر الآن عما كان عليه في القرن التاسع عشر. ففي ذلك العصر كان البغاء مؤسسة قائمة بذاتها، بسبب أن معظم البغايا كن عشيقات لأرستقراطيين، لذلك إذا تقرب فان كوخ من إحدى البغايا، فهو يقتحم الطبقة العليا، ويصبح صاحب امتياز ما غير مسموح له به. أما الآن، وهنا، فقد أصبح البغاء جزءاً من الفلولكلور المحلي. كلا. لقد حاول إحدى المرات لمجرد الفضول، عندما أقنعه أحد أصدقائه بالذهاب معه إلى ساحة الميدان، وعندما دخلا إلى أحد البيوت الخلفية، وجد حفنة من الرجال تقف في الطابور، فيما كانت العاهرة مستلقية على ظهرها، بجانبها كيس الكلينكس، تنتظرتهم، كان يحل كل واحد بنطلونه، ينام فوقها، يرهز رهزتين ويخرج ليأتي التالي. حينها شعر صالح برغبة في التقيؤ، وخرج مسرعاً. كانت تلك المرة الأولى والأخيرة. قد يكون بيت حسيبة يختلف عن ذلك البيت البغدادي، وقد تكون أكثر إغراءً، لكن لافرق، لا يريد الدخول هناك. في الأول قال لنفسه ليذهب ويعاين الدار من الخارج، فرسمياً لم يكن بيت حسيبة بيتاً علنياً، كان يعرفه القليل من الرجال المتزوجين، والذين لم يبوحوا بسره، وإلا لما كان من السهل عليها البقاء

هناك مدة لابأس بها، رغم أنه سمع، أنها لم تنو البقاء هناك لمدة طويلة، إنما هي في طريقها إلى حي الطرب في البصرة، وكانت كميت مجرد محطة، بالإضافة إلى بث عصام عن طريق رجاله إشاعة مفادها أن البيت مجرد مكتب لايريد البوح باسمه «مديرية الترتيبات العامة» أطلق عليه كاظم. لذلك باستثناء حسيبة لم يسمح للباقيات بالخروج إلى المدينة. لم يقف عند ذهابه في الشارع، فقد حرص ألا يلمحه أحد، ولمفاجأته اكتشف أن معظم زبائنها يأتون في سيارات عسكرية، فقد كانت سيارتا جيب عسكريتان اصطفتا واحدة وراء الأخرى عند باب البيت، لم تمر دقائق حتى رأى ضابطاً أشقر مربوع الشكل يخرج مع حمايته ويستقل الجيب الأولى. «إذن هذا هو سبب وجود البيت» قال لكاظم، الذي أجابه حينها «عندهم فرضية عسكرية بمنطقة الجزيرة».

لم يحدث ماجدة بالقصة، لكنه بعد أن عرف أن الدائرة بدأت تضيق أكثر هذه المرة وأن عليه أن يقرر بسرعة، حزم حقائبه، وقرر التوجه إلى بغداد، «على إنجاز معاملة الطلاق»، قال لماجدة، التي لم تعلق حينه، إنما سمعت جملته بصورة حيادية، وكأن الأمر لا يعنيها، أو هذا ما حاولت أن تمنحه من انطباع. لم يحزن صالح فراقه لماجدة، بقدر ما أثار قلقه تبدلها المفاجئ، إذ هما في الأصل لم يعتادا لقاء بعضهما غالباً، كان ثمة انقطاعات تستمر أسابيع، إذ لم تمر ببيت جدته بعد تلك الظهيرة سوى مرتين أو ثلاث. لم يرغبا في جعل علاقتهما تنكشف. وفي المرة الأخيرة اقترحت هي عليه أن ينتظر حتى انتهاء السنة الدارسية، وبالذات بعد انتهاء امتحانات الدور الثاني، لأنها أكملت في مادة الرياضيات، التي ستمتحن بها في شهر أيلول، حيث تذهب بعدها للدراسة في مدينة العمارة. حينها اكتفى الاثنان بتبادل الرسائل بشكل سري أثناء درس التاريخ. وعندما أخبرها مرة بنيته في الذهاب إلى بغداد لإنجاز معاملة الطلاق، لايدري لماذا كتبت له

تقول: من الأفضل أن يفكر في الموضوع جيداً، حينها اعتقد أنها تمزح، ولكنه اكتشف في الأيام التالية بعض التبدلات بالفعل. هل خوفها من استحالة علاقتهما جعلها تعيد النظر أم هي غيمة شك عابرة؟ «مستحيل نكدر نعيش في كميت مع بعض. حتى إذا رحنا إلى بغداد راح يطاردنا عصام» قالت له في المرة الأخيرة بأسى. هل فقدت ماجدة الحماس؟ من طرفه كان مستعداً للذهاب إلى أبعد النتائج، وليكن مايكون، «نترك كميت ونختفي في بغداد»، أجابها حينها. لم يفكر بعواقب تركه التعليم، سيعتبرونه هارباً لأسباب سياسية، وسيطاردونه، ولكن ألم يوقع لهم التعهد؟ ألم يفعل كل ما أرادوه؟ وحتى عصام، فإنه تعامل معه بدبلوماسية، إذ اتصل به من بغداد معتذراً عن سفره المفاجئ، حتى أنه وجد نفسه مضطراً بإخباره عن قضية طلاقه، واعداً إياه بتنفيذ مايريد عندما يرجع إلى كميت، أمر جعل عصام يهدأ بعض الشيء. أم يدرس أيضاً طوال هذه الفترة مادة التاريخ كما هي في الكتاب المقرر؟ ألم يتهرب من الإجابة على أسئلة طلابه المتشككة في بعض الوقائع، وخاصة أسئلة عوف الذي كان يكذب كل الوقائع التي يوردها الكتاب؟ وحتى عندما اختفى عوف، ألم ينظر بعيداً متجنباً نظراته التي كانت ربما تتهمه بالتواطؤ؟ ترى ما الذي يريدونه منه أكثر؟

اكتظت تلك الأسئلة برأسه. كان قد خرج للتو من بار «الركن الهادى» بعد أن شرب قنينة من البيرة. انعطف من شارع الخيام باتجاه شارع الرشيد، حيث كابينات التليفون. مر بسينما روكسي، ضحك عندما رأى مانشيت الفلم الذي ارتسمت عليه صورة امرأة صارخة «خذني بعاري»، «بالفعل خذني بعاري» همس مع نفسه. دخل إحدى كابينات التلفون. تردد في إدارة قرص التلفون، بل كان يتوقف أحياناً في المنتصف. ما الذي يجعل إصبعه يتوقف عند الرقم الأخير؟ ألم يحسم الأمر؟ كانت الساعة

الواحدة والنصف، عندما سمح لإصبعه أن يدور دورة كاملة، ويعرف أنها في هذه الساعة صعدت إلى غرفتها في قسم «المنوعات» في إذاعة بغداد. جاءه صوت رئيس قسم المنوعات، الذي لا يدري فيما إذا كان اسمه عبد الرزاق أم لا، والذي كان صالح يكرهه أكثر من كرهه للسلطة:

– أعتقد حضرتك أستاذ صالح زوج حامدة السابق!

أراد أن يقول له «لحد الآن أيها الغبي»، لكنه صمت. فتابع الآخر بصوت لم يخل من شيطانية ونكد:

– أعتقد هي في الأستوديو. راح أتصل بها، وأخبرها عنك، تعرف حامدة مشغولة دائماً، من النادر أن يكون عندها الوقت الكافي.

لم يجبه صالح، إنما ظل متماسكاً، وإن ود الصراخ به أن يختفي ويتركه بسلام. سمعه يضع السماعة على المنضدة ويغادر الغرفة. بإمكانه تخيل المكان، لأنه زارها أكثر من مرة هناك، كما أنه وعن طريقها سجل بعض المساهمات، وشرب الشاي مع هذا «العكروت» عبد الرزاق. كان بوده أن يضع السماعة ويغادر المكان إلى أحد البارات القريبة. شعر أنه يعرق، فتح أزرار قيمصه ودفع باب الكابينة إلى الخارج. كان وكأنه فقد القدرة على التنفس دفعة واحدة، إذ بدأ نفسه يضيق، حتى بدت له فكرة الاتصال مملة وسخيفة بالفعل. فكر بتعليق السماعة، ولكنه تردد «ترى ماذا سيقول هذا الأمي؟ فكر صالح «يقيناً سيعتقد أنني خفت منه»! يقيناً سينتفش ريشه مثل ديك.

اخترقت شمس الظهيرة الزجاج وراحت أشعتها تضرب جبهته بسياط لهيبها. أدار ظهره إلى الشمس، وأقسم أنه سيعد حتى العشرة، وإذا لم ترد حامدة، فإنه سيغادر فوراً. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خم..

– صالح كيف حالك؟

وهو الذي حرقته شمس الظهيرة لم يكن مهيأً لودها امتلأ بنبرة مصطنعة. بلع ريقه، ليسترد أنفاسه:

– لا بأس، تعرفين سبب اتصالي؟

فأجابته مباشرة:

– أرجو أن يكون مثلما أتصور، الطلاق!

لايدري لماذا سكت، بل لماذا استحوذ عليه ما يشبه الحزن؟ هل انتظر جواباً آخر؟ ثم ما الذي يبحث عنه بعد عند هذه المرأة؟

– نعم بخصوص الطلاق وأشياء أخرى.

جاءه صوتها متسائلاً:

– أمور أخرى؟ شنو قصدك؟

هو ذاته لم يعرف ماذا كان يعنيه بـ «أمور أخرى».

– انس الموضوع، أنا نفسي ما أعرف اللي قصدته.

فعلقت:

– كالعادة يازعيم الوجوديين العرب.

فقال لها:

– زعيم الوجودين الأكراد أرجوك.

فقالت بنكد:

– نسيت بأن الأخ أممي.

حينه ثاب صالح إلى رشده وعرف أنه من العبث المزاح معها، فلا ضير عندها أن توقعه بأمور خطرة الآن.

– الأحسن نتفق على مكان. شنو رأيك نلتقي في البيت؟

فسألته:

– ليش في البيت، لاتعتقد راح أنام وياك!

فأجابها بسرعة:

- أعتقد عندك بعض الغراض هناك، ثانياً علينا تسوية قضية البيت.

صمتت، وكأنها كانت بحاجة إلى فرصة للتفكير:

- أوكي، في البيت، الأربعاء القادم، العصر؟

عندما وضع السماعة في مكانه، ارتجفت يده. خرج من الكابينة، وأشار لسيارة تاكسي، ليتجه إلى بيته. لم ينتبه طوال الطريق إلى تعليقات سائق التاكسي الذي راح يلعن الحر والحياة التي تزداد كل يوم صعوبة، غير ناسٍ ذكر مستوى المعيشة المتردي والغلاء الفاحش، في الوقت الذي كان يدرس ردود فعل صالح من خلال المرآة. اكتفى صالح بإطلاقه آهة تعجب بين اللحظة والأخرى، حتى وصل الدار لينزل وأنه قد تخلص من عبء كبير.

كلما وطئت أقدامه الدار، فكر بسبب إبقائه عليها. لماذا لم يسلمها إلى مالكها؟ لماذا يستمر في دفع إيجارها؟ حتى أنه سلم صاحب الدار في المرة الأخيرة إيجار أشهر ثلاثة، وعندما سأله الرجل، فيما إذا كان يفعل ذلك بسبب سفرة طويلة، أجابه «بالفعل».

لم يقل له الحقيقة. قد يكون شكه بمشروع كميت حمله على الاحتفاظ بالبيت، فهو يعرف صعوبة العثور على سكن في بغداد، وإلا عليه أن يُسلم نفسه إلى غرف الفنادق القذرة، إذ بعد وفاة أبيه وأمه أصبح من المستحيل عليه السكن هناك، فقد قال له أخوه الأكبر مجيد، أنه غير مستعد لإيواء «مشبوه سياسي» يجلب الخطر عليه وعلى عائلته، هو صاحب الأطفال الثلاثة. على أية حال كان تعليق أخيه زائداً عن اللزوم، إذ هو لم يشأ السكن معه، لذلك اقترح عليه دفع حصته من البيت التي تنازل له عنها أمام المحكمة، ولكن لحد الآن لم يستلم صالح من أخيه قرشاً واحداً. على أية حال كان يعرف أنه سيبقى في حاجة لدار، رغم دفعه الإيجار. ولكن هي حامدة لماذا تركت كل أشيائها أيضاً في الدار؟ هل أرادت اختباره؟ وهو

لماذا لم يحسم أمر الطلاق منذ زمن؟ هل كان متردداً؟ هل كانا يلعبان لعبة القط والفأر؟ هل هو ضعفه الذي يقوده دائماً إلى دولاب الملابس، كلما دخل الدار؟ كم أفزعه ضعفه تلك الظهيرة التي خطر له فيها فتح خزانة الملابس. كان يمر على قطع الملابس وكأنه يريد اختيار قطعة مناسبة لها، يتوقف عند بعضها. ألم تتوقف عند بعضها. ألم تتوقف يده عند إحدى تنوراتها الطويلة؟ كانت التنورة في الأصل ثوباً طويلاً اشترته معه من سوق اللنكة. في تلك الأيام كانت حامدة مغرمة بشراء الفساتين الطويلة، وقصها ثم عمل تنورات منها، أمر تعلمته من الطالبات العرب اللواتي حملن أحدث الموديلات الأوربية معها. كانت هي مثله تشتري معظم ملابسها من سوق اللنكة. تذكر المعطف الشتائي الذي لايدري لماذا كان يذكره بمعطف أنا كارينا مثلما وصفه تولستوي. وذات مرة زارا إحدى صديقاتها الساكنة مع أمها في العيواضية والتي سحرها جمال المعطف، فسألتها عن مكان شرائها له وعن تكاليفه، وقبل أن تجيب كان هو يصيح فرحاً:

– تخيلّي سعره كان دينارين فقط!

احتجت حامدة:

– آخ صالح يحب المزاح، يقصد عشرين دينار.

ثم خزرته بنظرات غاضبة. حينها لم يتعرض على تبجحها.

أزاح الملابس المعلقة، ومد يده في عمق الدولاب خلف كومة الملابس المصطفة. لم تبحث يده طويلاً، هاهو يستل لباساً داخلياً يتكون من قطعتين تربطان من الجانب، والذي طرز على مقدمته في الإنكليزية "Freeday". لقد أخفاه خلف الملابس، عندما عثر عليه في حمام البيت، لايدري إذا ما كانت نسيته، أم تركته عمداً، بعد الظهيرة الأخيرة التي قضايا معاً بعد انتهاء علاقتهما.

رفع اللباس إلى أنفه وشمه حيث الكلمات المطرزة، مازالت أرومتها مع رائحة الأرين هناك.

«آه تلك الرائحة». أغلق عينيه، حتى بانت تلك الظهيرة وكأنها حدثت أمس أو اليوم. كانا قد جاءا من الوزيرية، حيث جلسا هناك، وشربا على الأقل عشر زجاجات بيرة سوية وتناقشا ساعات طويلة لإنهاء ما بينهما، هو حدثها عن قراره في الذهاب إلى كميت، وهي عن قرارها في التعاون مع منظمة الحزب في الإذاعة، بل اتفقا ألا يمس أحدهما الآخر بعد الآن، متفقين على تلك الجملة المليئة بالنفاق «نبقى أصدقاء». عندما دخلا البيت في تلك العصرية، كان هو قد قرر بالفعل ألا ينام معها بعد الآن، بل أخبرها أنه سينام في صالون البيت لحين سفره إلى كميت. سمعت جملته بحيادية، وراحت تخلع ملابسها، فيما قالت له: إنها لاتجد أي ضير أن ينام القيلولة على نفس الفراش. كان أنف صالح مدرباً على رائحتها، لذلك لم يشك بما نوت عليه، ولكن أين يتجه، فلقد انتشرت رائحة رطوبتها مثل رائحة سمك، بسرعة، سيطرت على فضاء الغرفة. تمددت فوق السرير، كأنها تتحداه، تريد أخذه من نقطة ضعفه. لاتشك في اشتهائه لها، رغم محاولته منح انطباع آخر. لم تكن معانقاتهما الأخيرة غير دورات احتفالية، خالية من أية حركة رشيقة، أو تلقائية، معارك بلا شهود، يتباريان بانتظار سقوط الأول في الضربة القاضية، من هو الذي يشهق أولاً. معركة عادلة ونذلة. لقد سرقا حيل بعضهما، من يجلب من للطلق الأخير؟ اختلطت الرغبة بالكذب. أصبحا بارعين في إخفاء الرعشة. كانت هي تجيد اللعب أحسن منه، لن تنفع ابتسامته الدبلوماسية المقززة أمامها، هي المحصنة، العنيدة، المنيعة، ككل النساء التي يختفي الحب منها، ويصبحن بارعات في التلاشي والالتفاف. غالباً تتركه جسداً بلا حراك، مفرغاً من الوجد، وعاء

المني لاغير. وكثيراً ما تساءل أين تخفي متعتها، هي البارعة في الغياب وهي معه، لافي العينين، لافي القلب، أما أسفل البطن حيث يتركز ثقلها، وتطغى جاذبيتها، فلم يكن غير هاوية عميقة المياه، عضلات تتقلص بإتقان. من الصعب عليه أن يفهم. كان كمن ينجز عملاً لغيره. لا يريد أن يهزم مثل كل مرة، ولكنها المقاتلة الأصيلة لاتستسلم بسهولة، حتى وإن قال إنه سينام في الصالون، دائما يلذ لها إذلاله.

تراه واقفاً، ترفع جسدها قليلاً، تحلّ شعرها الذي كان مربطاً، لاتكتفي بتقبيله، تفتح أزراره، تعرف ضعفه. لماذا تصر على إذلاله وكأنها تريد أن تقول له «أنت بين يدى ابن العاهرة» يحاول المقاومة، يدفعها عنه. تقبل كأنها تتوثب بهجوم جديد «انتظر ابن العاهرة» تستدير بخفة، تسحبه فيسقط، ثم يستدير معها بروتينية. تمارس آخر أسلحتها السرية التي تجيدها معه، مغطية عينيها بمرفقها، تريد الاستحواذ على متعتها دون شهود، تنشب أظافرها في المخدة، تفلتها ربما لوجع، لكنها البارعة بالكذب لاتبوح لا تنبس ببنت شفة، فقط لهاثها يتكلم بدلاً عنها، يدخل في اللعبة معها، فيزيح يدها ويغوص في هاوية عميقة حيث يلقي بكل أسلحته ويستسلم لمتعة زجاج متكسر في حقل صاحب.

مرة أخرى ينتهي جسداً بلا حراك، مذلاً، يائساً رهيناً بما تقوله، لايهم، لماذا تبقي هي سيدة الوضع؟ ولاغرابة أن تقول له بعدها «آخ» حارة «أعتقد، أفضل تتلم وحدك بالصالون».

رجع ليجلس على حافة الفراش، ويضع اللباس إلى جانبه. ترى مع من تكون الآن؟ كيف تغيرت بهذه السرعة، فعلاقتهما لم تدم أكثر من سنة ونصف؟ كانت غالباً ما تعيب عليه في بداية علاقتهما في الجامعة عدم انتمائه السياسي، وتقول له مرات بسخرية ومرات أخرى بغضب «أنتم

الوجوديين والمتطيرين مشكلة الجبهة الأولى والأخيرة»، كان يرد عليها «في النهاية إحنه مو أعداءكم الطبقيين، وحسب الأخ كارل ماركس كلنا بورجوازيين صغار» كانت تقول له «عليك أن تقرر». كم تناقشا وتشاجرا تلك الأيام، ورفاقها الذين كانوا يعيبون عليه عدم انتمائه، لم يرتاحوا لرؤيتها معها. ولكنهم هم أنفسهم أيضاً الذين بدأوا بعدها بإشاحة وجوههم عنه عندما انتموا إلى حزب السلطة. هي أيضا راحت تعيد ذات الاسطوانة عليه ولكن هذه المرة باتجاه الحزب الحاكم، مضيفة هذه المرة حججاً جديدة «أفضل الاحتيال والدخول وية السلطة حتى نحقق أهدافنا حرية انتقالنا بين الناس» حتى هذه الحجة تخلت عنها تباعاً، لتظهر محلها حجج جديدة:

– يسألون عنك في المنظمة، يعتبرونك خطر جداً وتنتمي لتنظيم مسلح.

فقال لها بنفاد صبر:

– قولي لهم، انتميت للحزب الشيوعي.

وكان جوابه يخيفها، لأنها تعرف جنونه. لقد قدم صالح الـ«وجودي» بالفعل طلب الانتماء للحزب الشيوعي، في الوقت الذي بدأ غالبية قيادته يغادرونه.

قال لها ذات مرة:

– تتركين الحزب الشيوعي مع العلم أن موقفك الأخلاقي يحتم عليك المقاومة.

أجابته:

– أنت رجل حالم، إني امرأة واقعية.

وعندما سألها عما تقصده بـ«واقعية»، أجابته:

– مثل باقي النساء أحتاج بيتاً مثل الأوادم، أثاثاً حديثاً. يعني باقي النساء

أجمل مني؟

كلا. تلك هي المصيبة بالفعل. «أنت أجمل من كل النساء، ياعذابي». كان إذا ما صفا مع نفسه طويلاً يمنحها بعضاً من الحق. بالفعل هما لم يؤثثا بيتاً كالآخرين، ولكنهما- هي تعرف ذلك جيداً-لم يستطيعا توفير أي مبلغ. بالإضافة إلى أنهما لم يفكرا بالأمر بجدية، على العكس يفتخران أمام أصدقائهما أنهما عاشا سوية في البيت دون عقد رسمي، وأنهما في أيام انتقالهما الأولى لم يملكا حتى فراشاً، واكتفيا بالجرائد تحتهما.، حتى أنه قال لها مازحاً:

- إذا سألك أحد عن بكارتك، كَولي فقدتها على طريق الشعب.

من «طريق الشعب» إلى مقدمة برامج تلفزيونية رئيسية، بل وصل الأمر أخيراً، أن يسمحوا لها بقراءة نشرة الأخبار أحياناً. وكثيراً ما كانت تغيب ليالي طويلة خارج البيت، وإذا ما جاءت إلى البيت فإنها تعود في ساعات متأخرة من الليل، سكرانة، ملابسها منبعجة تماماً، شعرها متناثر، تصحبها إحدى سيارات الإذاعة أو إحدى سيارات الجيش الشعبي. وإذا ما أبدى امتعاضاً من سلوكها، فإنها تصرخ به، مبدية استغرابها بعدم تركها، بل كانت تقول له، هي ماعادت تعيش معه، لأنها لا تستطيع تحمل غروره وكبريائه المفتعل، تستفزه ببيت من الشعر «الكل سقط، ماعداي فقط. كبرياء فارغ» بعض الليالي كانا ينتهيان إلى ضرب بعضهما بعضاً حتى ينتهيا إلى الفراش ويغطسان في مضاجعة عنيفة، تعبير عن معركة دائمة لايعرفان نتيجتها، ثم يستيقظان في الصباح وعلى جسديهما انتشرت جروح على شكل مخالب.

كان صالح غالباً ما يتساءل ما الذي يشدهما إلى بعض بتلك القوة، رغم شجاراتهما العنيفة؟ هل هما شخصيتان يائستان تتقاسمان كعكة خيبة

واحدة؟ أو كانا يتباريان، من يكسب الجولة؟ كانت تعبر له عن عدم فهمها له، هو الذي كان يرفض الانتماء إلى الشيوعيين دائماً، كيف يقرر فجأة الانتماء إليهم في زمن خطير جداً. وكان هو يجيبها ساخراً، أنها لن تفهم ذلك، لأنها ليست وجودية وليست متطيرة. لم يقل لها، إنه لم يبق له شيء، كان خالي الوفاض، عارياً، حتى علاقته مع الشيوعيين انتهت لأن زمن الأبطال والأخلاق قد ولى بلا رجعة. حتى سامي الذي كان يشتغل في جريدتهم الأسبوعية، جاءه ذات مساء إلى بار سرجون ليقول له بصراحة، بأنه من الأفضل أن يكون المرء واقعياً، فقد انتهى شهر عسل الجبهة، وهو ماعاد يحتمل، ولحسن حظه أن زوجته رئيسة اتحاد النساء الرسمي، قرر مغادرة الحزب والانتماء إلى حزب السلطة، وإن عليه تدبير حاله. «دبر حالك» جملة شاعت على ألسنة الشيوعيين، كل واحد يقولها للذي تحته، إذ فجأة أصبح الشيوعيون أعداء الفردية، كل لنفسه والحزب ضد الجميع. لم يغير سامي موقفه فقط، إنما أطلق بسرعة مثل الكثيرين شارباً بشارب السلطة. بالرغم من طمأنة سامي له تلك الليلة، أنه لن يزج اسمه في أي قضية، إلا أنه طلب منه أن ينتهي من شرب قدحه ويغادر المائدة فوراً. منذ تلك الليلة لم يلتق سامي ثانية. لقد سئم صالح الجلوس وحيداً في بار سرجون، واختار باراً آخر منزوياً عند أبي نواس. اختفى التطامن الذي امتلكه في الأيام الأولى، وحل محله اكتئاب عميق. اختفت الموائد الكبيرة. كان يكويه الحنين إلى تلك الليالي، حيث يشربون، ويغنون ويمارسون عبثهم بفرح أو بحزن، لافرق، المهم كانت الموائد تكتظ بالندماء. هكذا اختفى الجميع، مسلمين أنفسهم إلى عزلة داخلية، يستحوذ الخوف على حياتهم، حذرين من كل خطوة يخطونها، بعضهم لايستطيع النوم إلا بعد وضع كرسي وراء الباب، احتياطات مضحكة. وهو، كم عليه أن يتحمل تعليقات مدير المدرسة المبطنة بالتهديد، إلحاح حامدة بالانتماء، يعرف لماذا لم يكتف الآخرون

بعزلتهم، إنما تغيروا أيضاً، ألم يعتقد هو الآخر أنه لن يتغير؟ لايدري متى بدأ ذلك عنده، لكنه يعرف أنه قد قرر ذات ليلة أن يستريح. لقد شعر وببساطة أنه متعب. كان كلما نظر إلى وجهه في المرآة يشعر أنه يهرم. كم مرة بكى وبحرقة بعد مغادرته البار في أبي نؤاس. وكلما نظر إلى جهة النهر الأخرى، كلما شعر بغصة في البلعوم، وكم تمنى لو كانت في يده قنبلة كبيرة لرماها على كل الساكنين في تلك القصور، التي كان يتخيل تحتها أقبية تعذيب طويلة، حيث تدور مشاهد رعب تفوق بعنفها كل الأفلام. وحده يسمع عويله، وحده يعرف أن تجاعيده تحفر طريقها في وجهه مع الآلام والرغبات. كان ألمه يزداد، ووحدته تتعمق، ليصبح كل قرار عبثاً لاغير، «سيان» قال مدير التربية الذي خيره بين توقيع التعهد أو نقله إلى موظف في إسالة الماء في نواحي تكريت. كلا يقبل كل شيء إلا تكريت، «هات التعهد» قال للمدير الذي لم يستطع إخفاء دهشته «أوقعه بالحال»، وعندما وقعه سأله إذا ما كان هذا ما يبغيه، فعلق فرحاً:

– الآن يكفي التعهد، طبعاً الحزب ينتظر انتماءك.

حينها سأله، إذا كان بإمكانه أن يطلب شيئاً. أجابه المدير:

– تفضل.

فقال صالح:

– أرجو أن تنقلني إلى كميت.

كان يعرف أن المدير سيسأله: ليش كميت؟

فأجابه:

– أريد أرتاح عند جدتي هناك.

لايدري فيما إذا فكر في كميت من قبل. ربما قفزت الناحية إلى ذهنه عندما وقف متأملاً القصر الجمهوري، أو ربما لتشابه الكلمة مع «تكريت» التي أراد مدير التربية إبعاده إليها. ولكن لايهم لقد قرر أن يذهب إلى هناك،

ليستريح، دون النبش عن هذه الـ «لماذا» وهذه الـ« كيف»، ظل محتفظاً بأمر نقله مع نفسه حتى اليومين الأخيرين. وحين سألته حامدة في اليوم الأخير، لماذا أخفى عليها أمر نقله حتى الأيام الأخيرة، لم يجد غضاضة من التساؤل عن الفرق، ففي النهاية هي ليست معنية بالأمر، فقالت له:

- طبعاً ما يعنيني نقلك، لكن البيت ومعاملة الطلاق.

فأجابها، بأنه سيرجع بعد فترة لينتهي من كل هذه الأمور. من الغريب أنه لم يسألها أين ستذهب، هل كان يخشى سماع شيء لا يرضيه، لماذا؟ ربما كان في البداية غير متيقن من انفصالهما الأبدي؟ ربما كان يحتاج إلى زمن أطول ليعرف أن روائح أخرى التصقت بأجسادهما؟ ألم يشم تلك الرائحة، عندما التقيا كما اتفقا يوم الأربعاء عصراً.

لو لم يكن على موعد معها ذلك اليوم، لما كان تعرف عليها ببساطة، لقد غيرت هيأتها تماماً. كانت قد وضعت قبعة مكسيكية من القش، فيما تركت شعرها يطول، ولبست نظارة دائرية الشكل أضافت عليها أناقة ممتزجة بجدية لا تملكها في الأصل.

مدت يدها لتصافحه. مد يده هو الآخر. فيما لم يستطع كتم ضحكة جعلتها تتطلع إليه بوجه عكر، أجبره على الاعتذار:

- العفو. تذكرتك، شعرك القصير اللي كنت تعتبرينه رمز الثورية ودليلاً على تحرر المرأة.

- صالح أنا هنا بسبب معاملة الطلاق. أرجوك لاتنبش ماضياً ميتاً.

صمتت. ثم أردفت:

- أنت بعدك محنط بالماضي. افتح عينك. كل شيء تغير.

صمت الاثنان. عبثاً يحاولان التحدث. نهضت وفتحت حقيبة حملتها

معها، وراحت تضع ملابسها فيها. كانت تفعل ذلك بحماس، ظل هو محافظاً على صمته، وفي رأسه تطن جملتها «كل شيء تغير». بالفعل كل شيء تغير، حتى هو، ولكن هذا ما لاتعرفه. هل كان يتصور يوماً، أنه يجلس على حافة الفراش، يراقبها بحياد وهي تجمع ملابسها، كأنها امرأة غريبة.

انتهت حامدة من وضع كل ما تحتاجه في الحقيبة. سألته:

- أوكي، بذهنك موضوع معين، لو نمشي؟

سألها:

- عندك رغبة في الاحتفاظ بالبيت؟

أشارت له بالنفي. مرة أخرى لم يسألها أين تسكن. لقد انطفأت لديه الرغبة في الحديث معها، بل في رؤيتها.

لم يحدق بها هذه المرة، إنما أخرج صوته:

- أفضل نلتقي في المحكمة مباشرة.

تطلعت إليه وتساءلت:

- يناسبك يوم السبت؟

فأشار لها موافقاً.

خرجت حامدة بسرعة، كأنها كانت تنتظر إجابته تلك. لم يشعر صالح بالغضب، إنما استحوذ عليه حزن مفاجئ بالرغم من أنه قرر الانتهاء من القصة. كان قد أسلم نفسه إلى قناعة بسيطة «إذا مات الشخص الذي تحبه في حادث ما، فإنك تبقى وفياً لخياله لاتستطيع نسيانه. ولكن إذا كان هذا الشخص قد طعنك، فإنك تستطيع أن تنساه مثلما تنسى عقب سيجارة. ثم إن الحب كأي تجربة إنسانية أخرى، قابلة للفشل أو النجاح. المهم ألا تخسر إنسانيتك إذا فشلت. لم تترسخ هذه القناعة في ذهنه يوم الأربعاء فقط، إنما في يوم البست أيضاً، أثناء إجراء معاملة الطلاق.

لم يشأ تذكيرها، عندما دخلا المحكمة، كيف أنهما مرا ذات يوم وبالصدفة في المحكمة عندما قررا الزواج. لم يرغب أن يحدثها عما جرى ذلك اليوم في المحكمة، أي نزق سيطر على فعلهما العبثي، كيف أنهما كانا يضحكان بسبب عدم صعوبة إيجاد شاهدين للزواج، فقدكانت المحكمة تكتظ بالشهود الذين لاتهمهم القضية التي يشهدون من أجلها، المهم دفع مبلغ بسيط لهم. ألم يعلقا حينها «هل يدفع هؤلاء فائض قيمة؟» وكيف أنهما ضحكا من الموظف العجوز ذي النظارات السميكة والذي عندما طلبا منه أن يكتب في عقد الزواج «الحاضر دينار واحد فقط والغائب تسعمائة وتسعة وتسعون ألفاً وتسعمائة وتسعة وتسعون»، حينها نهض من مكانه وطلب التنحي بصالح، محذراً له من مكر النساء، وكيف أنه من المستحيل عليه دفع هذا المبلغ في حالة الطلاق، وأنه ليس ابن الجلبي أو ابن النعيمي، مصراً مع القاضي على تغيير العقد. وكيف أن الموظف العجوز ذاته طلب منهما تغيير العقد أيضاً، عندما كتبا الحاضر تسعمائة وتسعة وتسعون فلساً والغائب فلس واحد، حينها طلب التنحي بحامدة، محذراً إياها من حيل الرجال، وعليها ضمان مستقبلها. كلا لم يشأ صالح تذكيرها بكل هذه القصص، والتي صاحبته منذ دخولهما المحكمة من الباب الرئيسي حتى مرورهما بكاتب العرائض، وحتى وصولهما غرفة القاضي. بل لايريد هو التذكر. لم يعد يعنيه الأمر، كما أنه لن يشعر بذات الوخزة التي أحسها تنغرز في قلبه، عندما رآها ذات ليلة مع الضابط السابق، مدير إذاعتها الحالي، الذي عندما أعدموا أخاه مع الواحد والثلاثين، منع أهله من إقامة الفاتحة، مبرراً أنه «شيوعي يستحق فعلته». كلا لايريد تذكيرها بكل هذه القصص، كل ما يريده هو الانتهاء من المعاملة الروتينية وبسرعة.

لقد أخذت المعاملة بالفعل طريقها الروتيني. وعندما أرسلت الباحثة

الاجتماعية التي تشتغل في المحكمة لتسألهما عن أسباب الطلاق، بدا له الأمر مضحكاً، فقد جلست الفتاة بوضع بطر، إذ راحت تسأله وبيدها القلم، فيما تكدست فوق المنضدة مجموعة ذات الاستمارات التي كان يوزعها طلاب قسم علم الاجتماع في الكلية بين الوقت والآخر عند إجراء مسح ميداني. وعندما سألته:

– هل أسباب الطلاق مالية أم نفسية، أم جنسية؟

ضحك وطلب منها الكف عن ذلك. وعندما أصرت، قال لها:

– أوكي بسبب انبعاجات نفسية لاعلاقة لها بالمرحلة زائداً شعر ساقيها.

حدقت به الموظفة باستغراب، كتبت ماقاله، ثم ناولته الأوراق، حتى أنها لم تطلب حضور حامدة. أنجزا أوراق الطلاق، كأنهما في سباق ركض. كانا يدوران من غرفة إلى أخرى، بصمت، مكتفيين بهز رأسيهما بـ «نعم» أو بـ«لا»، أو إذا دعت الحاجة إطلاق بعض الجمل القصيرة، ليصبحا بسرعة في غرفة القاضي، الذي قبل أن يضع توقيعه الأخير سألهما، فيما إذا لم يغيرا من قرارهما، إذ ما زال أمامهما متسع من الوقت للعدول عن خطوتهما التي هي «أبغض شيء عند الله»، فأجاباه بصوت واحد:

– أبداً.

فسأل القاضي، فيما كانت يداه تحركان القلم فوق الأوراق:

– الطلاق إذن؟

فأجاباه:

– نعم، الطلاق.

فتحركت أصابعه بسرعة، وكأنه يخاف تراجعه هو هذه المرة. ناولهما الأوراق:

– على بركة الله ورسوله.

عندما أصبحا عند باب المحكمة، نظر أحدهما للآخر. سأل صالح:

– تروحين للإذاعة على ما أعتقد؟

طوت نسخة ورقة طلاقها، ووضعتها في الشنطة:

– مع السلامة.

أشار لها:

– سأذهب إلى الجهة الأخرى.

لم يمد لها يده، هي الأخرى لم تفعل، إنما سارت دون أن تلتفت. لم يشعر صالح بحزن، إنما بفراغ عجيب في داخله. اتجه إلى شارع الرشيد، وعندما رأى أول صندوق قمامة، رمى ورقة الطلاق فيه، فيما استحوذت الرغبة عليه رؤية أحد من الشلة القديمة.

سار باتجاه بار «شريف وحداد». في الحقيقة لكي يصل إلى هناك، كان من الأسهل عليه قطع شارع النهر بعد خروجه من المحكمة الشرعية هناك، ولكن لعدم رغبته بمرافقتها حتى جسر الوثبة حيث تعبر من هناك إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون عند ساحة جمال عبد الناصر في الصالحية، جعلته يرتئي قطع شارع الرشيد والوصول إلى البار من جهة حافظ القاضي.

كانوا يأتون إلى شريف وحداد في أوقات الظهيرة غالباً، قبل توجههم بعدها إلى بار الركن الهادئ في شارع الخيام. كان البار يكتظ عادة بزبائن مختلفين: متقاعدون، موظفو الإذاعة، مسافرون طارئون، طلبة جامعة، موظفو الأمن، جنود مجازون. وغالباً ما كان الحصول على مائدة ليس بالأمر السهل. لحسن حظه لمح مائدة فارغة لاتتسع لأكثر من شخصين. جلس هناك. سأله النادل عما يريد، فطلب منه ربعاً من الزحلاوي وصحن جاجيك وصحن زلاطة. كعادته لم يستغرق النادل وقتاً طويلاً.

عمّر صالح بيكه الأول بهدوء فيما تناول ملعقة من كل صحن، ليدفع بعدها القدح إلى جوفه دفعة واحدة. كان ذلك ديدنه كلما شرب، فقد قال له خاله، الخمار المحترف:

- لازم تشرب البيك الأول مرة واحدة.

وعندما سأله عن السبب، أجابه:

- أصول الميز.

لقد انتهى خاله إلى الشغل في الكويت، ولا يدري صالح، فيما إذا كان مايزال مواظباً هناك على أصول الميز. لم يكتف هو وحده بدرس خاله، إنما علم حامدة في أيام علاقتهما لأولى، والتي حاولت تجريب الشرب بهذه الطريقة مرتين أو ثلاثاً، لتقول له بعدها:

- أترك أصول الميز إلك وحدك.

كان كمن لُدغ عندما تذكر ذلك. كلا لايريد أن يتذكر شيئاً، عليه إفراغ رأسه من كل ما تركه وراءه بعد خروجه من المحكمة. عند تناوله البيك الثاني، فكر الاتصال بماجدة، ولكن فكرة أخرى التمعت في ذهنه، أليس من الأفضل أن يفاجئها في كميت، ستكون قد انتهت من الامتحانات النهائية، سيريها ورقة الطلاق كهدية. ولكن اللعنة، ألم يرم الورقة في القمامة. هل يقوم ويبحث عنها. كلا، لايريد أن يحملها معه كل هذه الأيام، كما أنه يريد الذهاب هذه الأيام إلى هناك، من الأفضل أن ينتظر إلى حين اقتراب العام الدراسي الجديد، لايريد أن يعيش ضغط عصام عليه. ولكن كيف يترك ماجدة وحدها؟ كلا، إن الأمر ليس بهذه الصورة، فهي مشغولة في التحضير لامتحانها في الدور الثاني، ومن الأفضل ألا يضايقها. سيسير كل شيء على مايرام. سيجد حلاً لوضعهما. يقيناً سيتركونه لحاله، سيحاول التحدث مع

عصام. دفع بجرعه عرق أخرى. حتى لو أرسلوا في طلبه، سيقول لهم، بأنه لم يترك العمل السياسي فقط، بل بطل حتى من كتابة الشعر، وأنه طبق أكثر مما تطلبه التعهد. دفع جرعة أخرى. ولكن هل هجر كتابة الشعر بسبب التعهد، أم أنه جف بالفعل، ماذا يحدث إذا طالبوه بالعودة للكتابة؟ فكرة مرعبة بلا شك. احتسى جرعة أخرى. كلا، سيحاول إقناعهم بطريقة ما، بأن ملاك الشعر ما عاد يزوره. أي مطب أوقعت نفسك به ياصالح، مرة أخرى تستعيد الجملة مجدها «ماذا صنعت بنفسك» يدوخ صالح مع حديث النفس الطويل، ولا يصحو إلا على صوت هادئ يسأله بأدب:– تسمح لي بالجلوس؟

أجابه صالح بهزه من رأسه، وهو غائب عن الوعي تماماً، عيناه تحدقان من خلال الزجاج في النفق المتاخم للبار.

جنس الشاب مواجهاً لصالح. كعادته أخذته الريبة في الوهلة الأولى، لكن بعد لحظات، وبعد أن عاينه بتمعن، لاحظ من رأسه الحليق، أنه جندي، ثم إن هناك في ملامحه ما يوحي أنه لايملك سحنة رجال الأمن أو المخابرات، فيكفي أنه لايملك شوارب السلطة ربما خمن الشاب مايدور في رأس صالح، فتساءل مرة أخرى بأدب:

– أرجو ألا أكون ضايقتك؟

فأجاب صالح بارتباك:

– أبداً، أبداً.

لكن صالح المأخوذ دائماً بحذره، ربما استمر بانغلاقه، لو لم يبادر الشاب بالحديث، وكأنه لم يتحدث منذ سنين، أو كأنه حاز على ثقة جليسه. تساءل صالح من أين يأتي هؤلاء الناس بهذه الثقة، وفيما إذا كانوا

أكثر شجاعة منه؟ ربما يملكون فن الحديث أحسن منه، عندهم موهبة التحدث عن موضوع دون ملامسته بصورة مباشرة، إنما يمرون على أطرافهم، كأنهم يمشون على حافة السكين الحادة، دون الخوف من جرحها لهم. هكذا كان كاظم فندي، وهكذا يتحدث الشاب، إذ لم يخف عليه أنه جندي في معسكر التاجي، وعندما ذهب اليوم للالتحاق بعد انتهاء الإجازة، أخبروه أن وحدته قد انتقلت إلى بدرة وجصان. وحين سأله صالح عن ضير ذلك، أجابه، أنه بالفعل سيفرح لو أخبروه بانتقالها إلى الشمال أو إلى بدرة وجصان، لو كان زمناً آخر، إذ أن الجنود وخاصة من أصنافه يفرحون لو كانت النقلة بعيدة عن المعسكرات التقليدية، لأنها تغيير روتيني، لكن هذه المرة الأمر مختلف. كان صالح طوال الوقت يصغي بصمت، ولكنه لايدري كيف فتح فمه ليسأل:

– ماهو السيئ في هذه النقلة؟

فبدأ الشاب حديثه بحماس أكثر هذه المرة، لاسيما بعد شربه قدحه الأول.

– أكثر من سبب. الانتقال إلى الشمال أو إلى مدينة بعيدة، يعني غياب الصرامة العسكرية، حتى أن الواحد يقدر يطول شعره، يعني الإجازات الكثيرة، بالإضافة أن بعض الجنود يعاملون لأسباب معينة مثل المنفيين، حتى انتهاء خدمتهم، ولكن هذه المرة بدرة وجصان، تعقدت الأمور، لأن المناوشات بين إيران والعراق كثرت في الأيام الأخيرة. المدفعية الإيرانية تستطيع محو المنطقة في يوم واحد.

لم ينتبه صالح إلى وجه الشاب الذي أصبح حزيناً، وكيف أنه أتى على بيكه كاملاً عندما نطق جملته الأخيرة، فقد كان يتساءل مع نفسه «لماذا

يثق في هذا الشاب إلى هذه الدرجة؟»

مرة أخرى سمع صوت الشاب وكأنه يأتي من زاوية بعيدة من البار.

– تعرف، أني ما أفكر في الالتحاق، لأن أكيد هذ المرة راح تندلع الحرب.

لم يعلق صالح، إنما همس في داخله «إذن لم أتبدل، وإلا لما باح لي هذا الشاب بأسراره». شعر بشلل في لسانه، وبما يجعله منكفئاً في مكانه، كمن يبني سوراً حول نفسه، لايسمح لأحد بالاقتراب منه؟ هل يبحث الآخر عن عزاء عنده؟ ماذا لو سأله عن رأيه؟ هل يهمه اندلا ع الحرب؟ كلا. يقيناً سيقول له «لتندلع في أي مكان، لقد أعطيت التعهد بعدم التدخل بكل شيء يقررونه»؟ ربما سيقول له، لديه أن هموماً أكبر من الحرب، وأنه غير معني بالحديث سوى عن مشاريعه، وأنه تخلص اليوم من كل أوهامه القديمة؟ نعم تحدث فقط عن مشاريعه القادمة، عن ماجدة مثلاً. هل يتجرأ ويسأل الشاب أن يصغي له هو هذه المرة. لكن لسانه كان يرتد ويرتد، وكأنه ينكمش عند نقطة واحدة في نهاية البلعوم، فيشعر برغبة مفاجئة بمغادرة المكان، حتى إنه لم يسمع جملة الشاب التي حملت نبرتها أكثر من تحذير:

– راح تكون هذ الحرب أكثر من الجحيم.

من أين يأتيه اليقين ليقول للشاب، قبل أن يغادر البار «لاتقلق، من المستحيل أن تندلع الحرب».

لقد سار تلك الظهيرة باتجاه ساحة الميدان، مواجهاً شمساً حادة، طالت أشعتها طارمات شارع الرشيد. شعر بدوخة غير عادية وبدبيب الخمرة في كل مسامة من مساماته، ليعود الاضطراب القديم ذاته. لم يعتد الشرب

وحيداً وخاصة بظهيرة كتلك. أين هي الشلة القديمة. تطلع من خلال زجاج مقهى البرلمان لعله يجد واحداً منهم. لا أحد. هل اختار كل واحد منهم كميته؟ حيث لم يعد هناك مكان للتبريرات والعزاءات التي كانوا يحمون أنفسهم خلفها. ألم يبدأوا في التفتيش عن السبح القديمة، والجلوس في المقاهي« الشعبية كما يفعل رجال أيام زمان، السبحة في اليد والنارجيلة أمامه، وفي الأرجل تلعب الكيوات القديمة، التي واظبوا على شرائها من بائع كهل، دكانه يحاذي المدرسة المستنصرية؟ ألم يشرعوا في البحث عن مقاه شعبية في أزقة بغداد القديمة، حتى أصبح من الصعب العثور عليهم في مقهى البرلمان، بار شريف وحداد، بار الركن الهادئ، بار جبهة النهر، مقهى الرفاه، مقهى ياسين، مقهى المقعدين، بار سرجون، بار صفوان، بار ليالي الصفا؟ لقد دخلت مقاه وبارات وشوارع وأزقة جديدة إلى قواميسهم. لقد أدمنوا هذه المرة الانتشار في شوارع الكفاح، الشيخ عمر، الجمهورية، البتاويين، في بارات باب الشرقي، التي كانت بالنسبة إليهم كأنها تقع في قارات أخرى. ألم تتغير أحاديثهم؟ ما عادت تدور حول الخلاف بين الوجودية والماركسية، أو عن عظمة رامبو وجنون فان كوخ، بل راحت تدور هذه المرة عن أية سبحة أحسن الكهرمان أم اليسر، أو عن شريط غنائي نادر عثر أحدهم عليه، أو عن بار جديد أو عن مقهى منزوٍ. لم يتحدث أي واحد منهم عن التعهد الذي أعطاه، وكأنه حدث حيادي يحدث في قارة أخرى لأشخاص آخرين. ألم يمارس هو الطقوس ذاتها، وراح يجمع الأغاني القديمة، أغاني حسن الإيطوير جاوي، مسعود العمارتلي، زكية جورج، حضيري أبو عزيز، سليمة مراد؟ وعندما قالت له حامدة عن سخف مايقوم به، أجابها:

– إنها العزاء الوحيد للخلاص من إسهال أغاني السلطة والقائد.

تلك الظهيرة الساخنة اضطرب رأس صالح، حيث جلس في الباص

المتجه إلى حي جميلة. كان الألم يثقل على رأسه، فيما كان يضغط رغبة في التقيؤ كانت تلح عليه، والتي لدهشته نسيها عندما وصل إلى البيت، وبدلها رمى نفسه إلى الفراش بملابسه وحذائه. وقبل أن يغفو، مرقت صورة ماجدة في ذهنه مثل البرق، فتمتمت شفتاه التعبتان، ترى ما الذي تفعله ماجدة الآن؟ ونام.



مرت أسابيع على سفر صالح. لم ترتح لغيابه الذي أثار بلبلة في مشاعرها. لا تعلم ما الذي حصل لها بالضبط، ولكن منذ أن أخبرها صالح بعزمه على الذهاب إلى بغداد وإنجاز الأوراق المتعلقة بطلاقه من حامدة، حتى سيطر عليها هاجس من الخوف، وشعرت ربما هناك بالفعل ما يفصل بينها وبين صالح. حاولت تخيل المرأة، تشكيل ملامحها. بلا شك هناك ماهو مشترك بينهما، قد تحمل ملامحها ذاتها، وإلا لماذا كان صالحِ على علاقة معها، أليست هناك صورة إنسان نحلم بها دائماً؟ بقيت ليالي ساهرة، تتقلب مع هواجسها، ربما تكون حامدة أحلى منها، وتقنع صالح بالبقاء معها؟ بالفعل ماذا يحصل لو اقتنع هو بالفكرة، وقرر الرجوع إلى بغداد، فهي لاتدري ما الذي حمل صالح على القدوم إلى هذه «المقبرة»؟ يقول لها «أراد الخلاص والاستراحة هنا»، ولكن لماذا، هل هذا عذر كاف أن يختار الإنسان نفيه بنفسه، وهي لو خيرت، أما كانت اختارت بغداد أو البَصرة؟ لماذا لم تبح له بشكوكها ومخاوفها عندما كان في كميت، فهي تعرف أن تبدلات طرأت عليها منذ انتهاء امتحانات الدور الأول، حتى هو لاحظ ذلك، وسألها «أحس بتبدلك»، بالرغم من تلميحها له بجملتها «أعطني بعض الوقت»، هل كانت بالفعل بحاجة إلى مسافة بينها وبينه، لتختبر

مشاعرها الحقيقية إزاءه. من طرفه حاول طمأنتها بأن علاقته مع حامدة ماتت من زمن بعيد، وأنها مجرد زمن ماضٍ لا غير، كانت ترغب في تصديقه، ولكن شكوكها بالرجال لاتسمح لها بالاستكانة إلى الاقتناع السريع، وإذا ما كانت ظنونها لم تكن بتلك الدرجة من القوة عندما كان في كميت، فإنها تضخمت عندما ذهب إلى بغداد، ثم لا تفهم لماذا يبقى كل هذه المدة الطويلة، ويتركها، وحيدة مع عصام ماهود.

في الحقيقة لم يستسلم عصام بسهولة، بل لم يشأ التخلي عنها، لابسبب عناده فقط، إنما هو ينتمي إلى تلك الطائفة من الرجال التي يزداد تعلقها ويقوى مع رفض المرأة لهم، وبالنتيجة لايهم من كانت المرأة، يصبح الصراع معها أو عليها صراعاً من أجل السلطة. وفي مثل هذه الحالات يزاح كل ما يعيق مشروع الاستحواذ. وإذا ماكانت أخته تمثل وازعاً يحد من نزواته بعض الشيء سابقاً، فبموتها أفسحت له الطريق، أما الباقي فسينتهي منه مهما كان الثمن. هكذا عندما تجرأت حسيبة على مضايقته، تفاهم مع مدير الشرطة، ومع آمر الوحدة العسكرية المنفتحة بالجزيرة، بنيته في غلق بيت الدعارة وترحيل النساء إلى حي الطرب. ولكن الضابط قال له إنهم في كل الأحوال سيرحلون في الأيام الأخيرة من أيلول إلى الفاو، ربما من الأحسن الانتظار حتى ذلك الحين. كان من الممكن أن ينتظر، ولكن حسيبة هددته بالبقاء، مما وجد نفسه مضطراً لتسوية الأمر بصورة سلمية، منحها ألفاً وخمسمائة دينار كما وعدها بأن منظمة الحزب في حي الطرب، ستتكفل بكل الترتيبات اللازمة، وتضع تحت تصرفها أفضل المواقع الاستراتيجية، وستجهزها بأجمل الكرديات التي يجلبها الحزب من الشمال، كما ستخصها بمعاملة خاصة، ووعدها بزيارته لها هناك. وافقت حسيبة، فهي تعرف مايدره عليها العمل هناك، في ليلة الجمعة.

لم يتعلم عصام منذ طفولته أن يخسر معركة. عندما كان طفلاً، كان يتزعم عصابة الصغار، الذين كان عليهم الإذعان إلى جبروته، هو ابن معاون الشرطة وجده إقطاعي الناحية الكبير.

لم يشأ الاعتقاد بأن فتاة مثل ماجدة منحدرة من عائلة عادية، ترفضه، وتريد جعله أضحوكة في الناحية. كلا. من المستحيل أن يستطيع تحمل مجرد تلك الفكرة. ليست هناك سلطة غير سلطته. كما علمه جده «بيت ماهود هم كميت، وأنت الوريث» ، «أنا كميت، أنا القانون» كان يرد الذين يبدون اعتراضاً على بعض القرارات.

لم يفكر عصام على الإطلاق باحتمال وجود علاقة لماجدة مع أحد، وبالذات مع صالح، بالرغم من أن كميت مدينة صغيرة يشيع بها أي خبر بسرعة. لكن ماجدة وصالح لم يفعلا ما يثير شكوك الآخرين، إذ باستثناء لقائهما في درس التاريخ، لم يلتقيا في بيت جدته إلا مرتين أو ثلاثاً. ربما كان مدير المدرسة هو الشخصية الوحيدة التي أبدت بعض الشكوك، لكنه احتفظ بها لنفسه، لأنه لم يعتقد أن صالح من الجنون بحيث يدخل في تنافس مع عصام ماهود.

هكذا سارت الأمور في الناحية، حتى حل ضابط أمن جديد اسمه مزهر، الذي كان ينظر إلى عمله، كما باح لعصام ماهود، بأنه على غرار عمل الـ سي– أي – إيه، لذلك لم يكتف بجرد إضبارات «المشتبه بهم سياسياً» ، والتي كانت موجودة قبله في أدراج الأمن، والتي وجدها غير صالحة، لأن معظمهم إما انتمى إلى الحزب الحاكم، أو غادر إلى الخارج، إنما راح ينظم ملفات جديدة لكل أهل الناحية، لايهم إن كانوا متهمين سياسياً أم لا، لأن «الأمن يجب أن يضبط كل ما يحدث تباعاً» على حد

تعبيره. هكذا بدأ مع موظفي الدولة في الناحية، جمع معلومات سريعة عنهم، باستثناء عبد الحميد العطار، الذي ليست هناك أية معلومة عنه بسبب انتقاله إلى كميت. اتصل مزهر «چيمس بوند كميت» كما أطلق عليه الحلاق قاسم، بمديرية الأمن في بغداد لكي يزودوه بالمعلومات عن عبد الحميد العطار. لم يتأخروا في بغداد، لأن مديرية الأمن كانت الدائرة الأولى التي استوردت الكومبيوتر وأنشأت بنك المعلومات. عندما تفحص الضابط مزهر الملف لم يجد ماهو غير عادي فيه، حتى وصل إلي تقييم أفراد العائلة، وهناك وجد خطاً ثخيناً أحمر تحت اسم رعد، ثم كتب بجانبه بنفس الخط: «شيوعي ثوري خطر» لم يبق مزهر في مكتبه ذلك اليوم، إنما توجه إلى نادي الموظفين، وصعد إلى صالة القمار، ليطلب التحدث مع عصام ماهود على انفراد لدقائق. سأله:

– تعرف شيئاً عن نشاط رعد عبد الحميد العطار؟

اندهش عصام عند سماعه الاسم:

– من وين جبت الاسم، عبد الحميد عنده بنت فقط.

فرد عليه مزهر بلهجة مسرحية، ربما تعلمها من أفلام چيمس بوند بالفعل:

– ماذا؟ هل قلت ما لم تسمع به من قبل.

فأجاب عصام:

– طبعاً.

دون أن يتخلى مزهر عن لهجته المسرحية علق:

– إذن لم يعترف لاهو ولا ماجدة. هذا دليل آخر على خطورة رعد، ويعني أنه مختف.

في تلك اللحظة فقط عرف عصام أن مزهر لم يتفوه بترهات، فتذكر الصورة المعلقة في الصالة، في بيت عبد الحميد العطار. ربت عصام على

كتف مزهر، وقال له: من باجر أنت مدير الأمن.

غادر مزهر فرحاً. عاد عصام إلى الصالة، وصاح بمدير الأمن أن ينهض: اعتبر نفسك مفصولاً من اليوم، اطلع من هنا، إلى حين ما تقرر القيادة مصيرك.

غادر مدير الأمن الغرفة بسرعة، فيما بدا عصام أكثر انشراحاً، فراحوا يضحكون جميعاً مكملين لعبهم.

في اليوم الثاني ذهب إلى دائرة الطابو. كان عبد الحميد كعادته كل صباح منكباً على إضبارات الحسابات في الدائرة، عندما انفتح الباب فجأة ودخل عصام، هاتفاً بلهجة خطابية ووجه بشوش:

– صباح الخير أستاذ عبد الحميد.

همس عبد الحميد في داخله «ياستار». رفع رأسه عن السجلات ونهض من مكانه مضطرباً، كانت المرة الأولى التي يزوره فيها عصام:

– أهلاً وسهلاً، أستاذ عصام، أشرقت ونورت.

ثم أعقب بتلعثم وهو يمد يده ليصافح عصام:

– أهلاً وسهلاً، اأمر ونحن في الخدمة.

ضحك عصام ومد يده ليلمس كتفه برفق: لا داعي للكلفة، على بختك.

ثم سحب كرسياً كان موجوداً في الغرفة، وعاين الموظف الذي يقاسمه الغرفة بشزر، والذي فهم معنى نظراته وغادر الغرفة مباشرة.

لاحظ عصام اضطراب الرجل، فظل صامتاً لبرهة، كأنه يريد زيادة اضطرابه، ابتسم بمكر، بالتأكيد لم يغب عن عبد الحميد، الذي ربما كان يلعن في داخله ذلك اليوم الذي تمت فيه خطبة ماجدة وعصام.

بصوت لم يخل من التهديد سأل عصام:
- ليش أخفيت ابنك؛ الشيوعي علي؟
لقد فوجئ عبد الحميد بالجملة، ربما لأنه توقع كل شيء عدا هذا، لذا لم يجد بداً من الاعتراف:
- رعد كان ابني. اللي يشتغل ضد الحكومة لا أعرفه ولايعرفني.
فأجابه عصام:
- بارك الله أمثالكم، لكن تعرف إنت أكو قانون يلزم الكل دون استثناء.
عاينه عبد الحميد مبدياً عدم فهمه.
- القانون يحتم تبعية العائلة بسبب أي فرع خايس بيها.
سكت عبد الحميد لايعرف بماذا يجيب.
- أعرف أنت غير موافق على سلوك ابنك. لكن أعتقد أنت غير موافق على سلوك بنتك أيضاً.
حينها حاول عبد الحميد أن يفتح فمه.
- سيد عبد الحميد، تعرفني أكره الاستطالات. ماكو أي خطر عليك، إذا أقنعت بنتك. اعرف دائماً، أنا السلطة، ماكو واحد يوكف بوجهي.
وبصوت ضعيف اعترض عبد الحميد:
- لكن أستاذ عصام..
لم يمهله إكمال جملته:
- لا أستاذ ولا بطيخ، أعطيك مهلة حتى يوم الجمعة، أنتظرك بدوشة الطيور.

غادر عصام تاركاً خلفه الصمت، والحيرة لعبد الحميد العطار.

ترى هل بدأت ماجدة في التفكير بعصام ماهود عندما حدثها أبوها

بتلك القصة، لتدخل هي مثله في معركة على السلطة لا تعرف عواقبها؟ هل كانت تعبة هي الأخرى وأرادت أن تستريح؟ أين عنادها القديم؟ لماذا تشعر بأنها هشة، هل لأن المعركة مع عصام غير متكافئة؟ لماذا يقودها هو وليست هي؟ أليس بإمكانها تغيير الاتجاهات؟ هل ستؤمِّن برجوعها إليه سلام العائلة بسبب اختفاء رعد؟ هل من الضروري أن تقسم حصص المسؤولية في كل عائلة بهذه الصورة، واحد ضد الدولة، والثاني مع السلطة؟ هل قدرِها أن تجلس على الحافة الأخرى المواجهة لرعد؟ وماذا عن صالح، هل تضيف علاقتها معه تعاسة أخرى للجميع؟ أليست علاقتهما مستحيلة مثل استحالة ليالٍ بيضاء في كميت؟ يضج رأسها في بالأسئلة، كم تتمنى أن تلتقي بصالح الآن كي تقنعه بالرجوع إلى حامدة، ربما سيكون ذلك عزاء لها ويبرر قراراتها. ما الذي حصل لها لكي تكون مختلفة عن باقي النساء؟ كم تحسدهن عندما تعاينهن في السوق أو عند الكورنيش متجولات بصحبة أزواجهن، متطامنات بلا أحزان، بلا عذابات، كم تود أن تكون واحدة منهن، وليست هذه الـ «ماجدة» التي كلما تتطلع إلى نفسها في المرآة تكتشف أنها هرمت، فيما أخذت شعرات بيضاء تشق مفرق شعرها. ليس لشيب فقط، إنما كانت تشعر بجذب، عطب في الروح، جفاف. حتى عندما قرأت رسالة صالح التي بعث بها لها يخبرها بها أنه سيبقى أياماً أخرى في بغداد، وأنه متلهف جداً للقائها، لم تشعر بذلك الحماس القديم، بذلك الوجد الذي يشتعل في البطن، ويسري كالكهرباء، يكهرب الأعضاء والروح، بل قرأت الرسالة وكأنها مرسلة إلى امرأة أخرى. لم تكتب إليه رسالة جوابية. من أين يأتي هذا الجدب؟ لماذا يحملونها مسؤوليات لاطاقة لها عليها، فأبوها يتحدث عنها وكأنها هي منقذة العائلة، حتى إنها قالت له «أعتقد ماكو مهدية منتظرة»، ورعد ما الذي حصل له، لماذا تركها هو الآخر وحيدة؟ كأن مؤامرة جماعية تجمعت لتحطيمها. معركة غير متكافئة.

هل يعتقد عصام ماهود أنها ضعيفة بالفعل؟ ماذا سيحصل لو أدارت هي المعركة هذه المرة؟ كان رأسها يكتظ بأسئلة كثيرة، لذا لم تجد غضاضة، عندما سألها أبوها للمرة الأخيرة في صباح الجمعة عما قررته، أن تقول له:

– موافقة على شرط أروح وياك للدوشة.

لم يصدق عبد الحميد هذه المرة أيضاً ما سمعه، بالرغم من أنه تمنى موافقتها، إلا أنه بدا أنه لم يعد يفهم شيئاً مما يدور. خمنت ماجدة ما يفكر به فقالت:

– أحسن لاتفكر بالموضوع، لأنه أصعب من أن أفهمه حتى أنا.

تمتد دوشة الطيور من كميت حتى أطراف القرية، مستحوذة على مساحة طويلة من البساتين الممتدة على طوال نهر دجلة. لم تملك عائلة ماهود طابواً رسمياً بتملك الأراضي، لكنهم ورثوها عن جدهم، دون أن يستطيع أحد الشك بشرعية امتلاكهم تلك الأراضي الغنية بالأسماك، بالطيور وبالثمار. آنذاك كان العثمانيون يوزعون الأراضي على أساس الولاءات المقدمة إليهم، ومن هو الذي أنجز خدمات جليلة إلى الوالي، حينها لم يلق أية ممانعة لطلبه بقطع أطراف الأشجار الكثيفة والكثيرة المياه وتحويلها إلى دوشة طيور. لقد درت عليهم الدوشة أرباحاً كبيرة. إضافة إلى دخلهم الآخر. وإذا كان الجد يستخدمها لأغراض تجارية بحتة، فإن عصام حولها إلى منتجع له، يقضي فيه إجازاته ويصاحب فيه ضيوفه للصيد هناك. ففي الوقت الذي كان فيه الصيد ممنوعاً في كل المناطق المحيطة، من أجل حفظ الحيوان كما ادعت الحكومة، كان مسموحاً لعصام أن يصطاد ما يشاء حتى الطيور النادرة أو تلك التي في طريقها إلى الانقراض، كالحباري مثلاً. بالإضافة إلى

تحذيره الفلاحين في المناطق المجاورة من الاقتراب من الدوشة، والويل لمن يضبط هناك، فسيعدم عند أقرب شجرة. ليس ذلك فقط، إنما أعلن هو عدم مسؤوليته عن كل أولئك الذين تطولهم رصاصات الصيد، لذلك كان الناس يبتعدون يوم الجمعة عن المناطق المحاذية للدوشة، حيث يمارس صيده بصورة روتينية. وفي يوم الجمعة ذهبت ماجدة مع أبيها في سيارة الجيش الشعبي التي أرسلها عصام خصيصاً لهما، عندما أرسل له عبد الحميد خبر قدومهما.

لبست ماجدة ثوباً جميلاً كان قد أهداه لها عصام أيام خطوبتهما، فيما صففت شعرها باعتناء. لقد ظهرت ذلك اليوم جذابة بصورة أخافت أباها، الذي لم ينبس طوال الطريق بكلمة، والذي كان ينظر إلى ما يجري مثلما ينظر إلى مسرحية، لاتعرف نهايتها.

استقبلهم عصام مع مجموعة من الرجال المحيطة به عند مدخل الدوشة. أطلق ضحكة عالية هي مزيج من النشوة والفرح. مد يده ليصافح عبد الحميد الذي وقف مع ماجدة تحت شجرة للنبق انتصبت عند المدخل وحجبت الشمس عن الواقفين.

– أهلا وسهلاً سيد عبد الحميد.

ثم التفت إلى مدير المدرسة، وقال دون أن يخفي ضحكته:

– أرجوك أستاذ عدنان خذ سيد عبد الحميد وياك، واريه الصيد.

اقترب عصام من ماجدة، وهمس في أذنها:

– لا تنحرجي بسبب أستاذ عدنان.

ثم سحبها من ذراعها قائلاً: نتمشى شوية.

وبصوت عال، صاح:

- ياجماعة خذوا حريتكم.

لكن ماجدة صاحت بصوت مسموع:

- الأحسن نروح كلنه سوة، إني أيضاً أريد أتعلم الصيد.

وافق عصام على مضض. توغلوا جميعاً في الدوشة التي كانت كثافة دغلها تزداد كلما ابتعدوا حتى أطرافها. بعد دقائق توقفوا على صوت عصام:

- أعتقد هذا أحسن مكان للصيد.

وأشار إلى هضبة صغيرة انفتحت بين سدرات متفردة، غمر حضنها الممتد إلى العمق المياه فيما حلقت مجموعة من الطيور خرجت على أثر سماع خطواتهم من بين سيقان البردي التي شمخت وسط برك المياه. اختبأوا خلف الأشجار ليراقبوا الطيور التي كانت تطير بشكل جماعي أحياناً، ولكن غالباً فرادى، والتي تنقض بمنقارها بعض الأحيان إلى عمق المياه إذا ما رأت سمكة صغيرة تخرج خياشيمها إلى الخارج. لم تغب الطيور عن عيونهم المستقرة عند البنادق المصوبة باتجاهها، المستندة على أكتافهم، منتظرة إطلاقة عصام الأولى، التي انبعثت فجأة من خلف إحدى الأشجار، التي صاحبتها خفقة جناح سريعة، وصرخة فرحة:

- الطير الأول من حصتك.

أخذت الطيور تتساقط مع إطلاقاتهم المترادفة دفعة واحدة. أخفضوا بنادقهم، واتجه رجل مسن، عرفت ماجدة أن اسمه دبيس يركض بسرعة باتجاه الطيور التي جثمت فوق الأرض ليجمعها، فيما خيم صمت قطعته بين الفينة والأخرى كركرات قصيرة. يقيناً أنهم لم يعتادوا على تواجد امرأة بينهم، فلقد كان لطقسهم السري لغته أيضاً.

عندما رجع دبيس، سلم كل واحد منهم طيره، وكأنه يدري من أصاب أي طير، أمر أدهش ماجدة تماماً، وكما عرفت تباعاً أن الرجل واظب على الخروج إلى الصيد وهو طفل يصطحبه أبوه مع الجد الأكبر ماهود، ولم يغب أي جمعة وإن كان مريضاً. لم يغب على الرجل امتعاض ماجدة مما يجري، لذلك همس لها عندما سلمها طير عصام:

– ابتعدي عن هذ الورطة ابنيتي.

ولا تعرف أية ورطة يقصد، فهي في النهاية محاطة بأكثر من واحدة. كان بودها أن تسأله، لكنها لاتستطيع، بدل ذلك أخذت الطير منه مبتسمة، وانتبهت على عجل أن عليها ألا تمنح الانطباع بشرودها أو حزنها لما يجري، وعليها أن تخفي الرعشة التي سرت فيها من الأخمص حتى القدمين، عندما سمعت دوي الإطلاقات التي خددت السماء ورأت مصرع الطيور التي تساقطت مرة واحدة في البركة، والتي أثارت فيها حزناً تناسته، اختبأ في مكان ما في داخلها، حملها على تذكر رعد وصالح، كانت على وشك البكاء، ولكن صوت دبيس أنقذها من فضيحة كانت تتفاداها. فهي لم تشأ أن تسلم نفسها لأي خاطر ضعيف. على العكس، كانت تريد الإثبات بمجيئها ليس لعصام فقط إنما أكثر لنفسها أنها قوية، وأنه لايستطيع تحطيمها على الإطلاق، رفعت رأسها وأخرجت ابتسامة، وجمعت قواها كحيوان ضخم يهم بالهجوم، تقدمت والطير في يدها، لتصيح بعصام:

– بس طير واحد؟ حرامات!

فيما كانت تهمس في داخلها «سامحيني ياطيور».

فاجأت ماجدة الحشد بجملتها، فهم توقعوا على الأقل وجلها. تراجعوا

قليلاً إلى الوراء وانتظروا إطلاقة عصام التي لم تتباطأ، والتي فرقعت هذه المرة محدثة دوياً قوياً، لتعقبها واحدة وأخرى، بالتوازي أطلقت ماجدة كركرات عالية.

ماجدة التي بدت غريبة لهم جميعاً، بدت كما لو أنها تمرنت لتلك الجمعة منذ أيام طويلة، تحاول بجهد منح الانطباع وخاصة لعصام أن كل شيء على مايرام، وأن الأمر قد سوي، بحيث أنه لم يسألها عن سر تبدلها حتى عندما ذهب للعشاء معهم تلك الليلة، بل لم يسأل عن رعد إنما راحوا يتحدثون عن ترتيبات الزواج. هكذا واظبت هي للذهاب معه إلى الصيد معظم الأحيان. كان عصام منتشياً بانتصاره، يعتقد أنه ربح معركته ضدها.

ذات مرة اقترح عليها أن يريها ما لم تره لحد الآن في الدوشة. كانوا كعادتهم قد جاءوا مع المجموعة، في أحد تلك الجمع، عندما سحبها عصام من يدها، لينفرد بها ويسيرا بمحاذاة النهر. كان طريقاً ضيقاً ملتوياً لا يزيد عرضه عن متر واحد، امتد بين النخل المنتشر هناك والدغل الذي نمابكثافة صاعداً من حافة النهر حتى التلة التي ارتفعت عن الطريق. كانت أقدامهما تدوس النباتات الصغيرة الممتدة حول الطريق، كانا يضحكان عند تجنبهما الطحالب الصغيرة. لم يتفوها بكلمة، لاشيء غير ضحكاتهما، كما لم يشعرا بحرارة الشمس التي خددت الفضاء، لقد ظلت النخلات قامتيهما مع الطريق، وبدت الأشعة القليلة التي تسربت بين بعض السعفات، كأنها قد تسللت عنوة، حتى تلك الالتماعات الصغيرة كانت تختفي بعض اللحظات خاصة عندما تحركت سعفات النخيل إثر حركة هواء مفاجئة انبعث مارة بسطح الماء وصاعدة إلى قمم النخيل.

قطعا مسافة غير قصيرة، وأصبحا عند بيوت القصب التي جثت عند

ضفاف النهر، ممتدة وسط أرض امتلأت بشجرات النبق.

- تحبين النبَكَ؟

قالت له:

- أكثر منك.

ضحك.

- حُبي للنبَّك خلاني اطلب من أبوي أن يزرع بس هذ الشجرات.

أمامهما امتدت ثلاثة بيوت من القصب، من ذلك الطراز الإنكليزي المسمى بـ «جمالون» أحاطها سياج من الآس، فيما توسطتها ساحة كبيرة انتصب في وسطها بئر مزود بناعور صغير ترك طرفه حراً، حتى بدا المكان كا لو أنه هجر منذ زمن طويل. دخلا بوابة صغيرة شقت طريقها بين شجيرات الآس. توقفت ماجدة، هتفت:

- ندخل واحدة من الغرف.

كانت ماجدة قد قررت الهجوم.

بالفعل فاجأت عصام بطلبها، فهو كان يتوقع ممانعتها. لم يكن مهيأً لهجومها، فاضطرب بعض الشيء، لكنه من طرف آخر اعتاد على دخول اللعبة، فأجابها بصوت لم يخف اضطرابه:

- نفس الفكرة كانت عندي.

بإزاحته للمدخل القصبي، انفتح الجمالون عن فضاء واسع، لولا

الفتحة الصغيرة عند أعلى السقف والتي مدت الشمس من خلاله بوزها، لبدا الجمالون معتماً تماماً.

تحركت عيناها متنقلة بين الأثاث الخشبي الذي توزع في زواياه، وبين السجادة المزخرفة المفروشة فوق الأرض، التي استقرت فوقها صينية برونزية كبيرة، وضعت في داخلها فناجين صغيرة للقهوة، وعلب سجائر روثمان. قال لها:

– لنجلس..

اتجها إلى فراش كبير عند زاوية الجمالون، وقبل أن يجلسا أخرج هو مخدات صغيرة من دولاب قريب من الفراش، ليضعها كمسند لظهريهما.

هتفت ماجدة وهي تجلس:

– الجو حار.

ضحك، وسار إلى الزاوية المقابلة، ليزيح غطاءً صغيراً عن مروحة استقرت هناك.

سألته مندهشة:

– كهرباء؟

فعلق بتبجح:

– ماكو مكان في البلد بدون كهرباء.

ضغط على زر المروحة، فأخذت تبعث هواءها في المكان، ثم رفع غطاء آخر عن جهاز تسجيل قريب من المروحة:

– عبد الحليم أم كلثوم؟

أجابت:

– عبد الحليم.

أخرج شريطاً من صندوق صغير، وبسرعة صدح صوت عبد الحليم «زي الهوا ياحبيبي»

نهض واتجه ليجلس مرة أخرى بجانبها. لبرهة ظل صامتاً، ليسمح بيده في الزحف لملامسة يدها. لم تمتنع. راح يداعب أصابعها للحظات، ثم ذراعها، لم تمتنع. سحب أصابعه من ذراعها. لم تمتنع، إنما نظرت إليه ملقية ضحكة مفتعلة. امتدت يده تحت تنورتها، وراحت تلمس بالتدريج لباسها الداخلي. في تلك اللحظة تحركت يدها التي كانت طوال الوقت هادئة لتزيح يده من هناك، قالت له:

– احكي لي قصة هذا البيت.

سحب يده على مضض، تظاهر وكأن شيئاً لم يقع. وبدل أن ينفذ ما أرادت سألها فجأة:

– شنو اللي غيرك وخلاك ترجعين؟

فأجابته بضحكة جعلته يرتبك أكثر:

– ما اتغيرت على الإطلاق.

كعادته لم يأخذ كلامها محمل الجد، إنما فكر أنها تتدلع كباقي النساء، قرصها من خدها كأنه يداعب طفلاً.

كررت ماجدة السؤال.

فأجابها:

– في الحقيقة البيت ما بيه قصة خاصة. ما يختلف عن باقي بيوت دوشات الطيور الباقية، فقط بهذه المنطقة ماكو دوشة غير دوشتنا. بالإضافة إلى أنه مبني على الطريقة الإنكليزية. معظم البيوت القديمة في الجنوب كان يبنيها الناس بهذه الطريقة. أعتقد أن الضابط الإنكليزي اللي جاء بصحبة جدي للصيد، اقترح عليه بناء بيت جمالون قريباً للنهر، حتى يكون استراحة

للضباط الإنكليز اللي كانوا يصيدون هنا. أبوي اتخذه مثل بيت تانٍ. أذكر أمي كانت تريد حرقه أكثر من مرة، كانت تعتقد أنه ينام مع نسوانه هنا.

أرادت أن تقول له إنها تجد فكرة أمه بحرق البيت مغرية. لكنها اكتفت قائلة:

– ممكن نشوف أقسام البيت الباقية.

غادرا مكانهما واتجها إلى الكوخين الآخرين، دخلا الأول. كانت قد فُرشت سجادة كبيرة في وسطه، فيما امتدَّ فراشان عند الزاوية، انتصب بجانبهما دولاب قديم مازال محافظاً على لمعان خشبه القديم، فيما بانت زجاجات الويسكي والأقداح من خلف الزجاج. وعند الزاوية المواجهة للفراش انتصب أيضاً جهاز تلفزيون.

– أنت الوحيدة اللي تعرف هذه الأسرار.

خرجا وأصبحا بمواجهة الجمالون الثالث والذي كان يفوق الاثنين الأولين بكبره. عرف عصام ما يدور في ذهنها، فقال:

– ما عندي مفتاح هذا الجمالون.

ضحكت ساخرة، وحدقت به بنظرات مليئة بالشك. سحبها من يدها، أوقفها بمواجهة مدخله تماماً، فرأت كيف أن المدخل قد زُود بالحديد والقيود التي صبغت بلون القصب، بل امتدت هذه القيود إلى داخله، حتى أن ماجدة فكرت ربما اختفت قضبان خلف جدارن البردي. لم تعرف ما كان يتهامس الناس حينها حول استخدام البيت كمكان للتعذيب وسجن في فترات مختلفة.

قال لها، ليبدد شكوكها:

– لا تقلقي، بعد الزواج تشوفينه براحتك.
فقالت متسائلة:
– شنو المانع الآن؟
أجابها:
– يعني ما تحبين المفاجآت!

صمتا. ولبرهة حدق أحدهما بالآخر، كان قد سرى صمت مريب حولهما. حتى تلك النسمات التي كانت تحرك سعفات النخيل توقفت. قلقت ماجدة، ولا تدري أين ذهبت تلك الحيوانات الصغيرة التي كانت عادة تتقافز بين الدغل والأعشاب الصغيرة الممتدة حول جذوع الأشجار، فيما سكتت بنادق الصيد منذ مدة طويلة. لقد بدا المنظر، كأن كل شيء أسلم إلى شمس العصر التي بدت وكأنها تسحب معها أيضاً نسمات الهواء، خفقات الماء، حفيف النباتات، هسيس الحيوانات، الممتزجة مع أنفاس عصام التي كانت تصل أسماعها في تلك الساعة.

كانت ماجدة شبه مخدرة، لم تشعر بيده التي قادتها إلى المكان السابق، لتطرحها هناك. رمى هو نفسه فوقها وراح يقبلها على طول وجهها، هابطاً عند رقبتها، وصدرها، فيما طوقت إحدى يديه رأسها، وراحت الأخرى تداعب ثديها الأيسر. أرخت يديها إلى الجانبين سامحة ليده في التنقل حيث تشاء. هكذا وكأنها دخلت في غيبوبة لم تصح منها إلا عندما شعرت بيده تحاول سحب لباسها الداخلي. أوقفت يده بحركة قوية، دفعتها إلى جانب. خلصت نفسها منه برشاقة، نهضت وعدلت من وضعها:
– لاتحاول مرة ثانية.
فسألها:
– ليش؟

أجابت:
- مفاجأة للزواج.
ثم أعقبت:
- أحسن نرجع، أعتقد أنهم ينتظروننا.

كانت المجموعة بالفعل جالسة بانتظارهما، يطويها صمت، قطعوه عندما لمحوا عصام يقترب منهم كي لا يثيروا شكوكه. حتى أبوها تصرف ذلك اليوم، كما في الأيام التالية وكأن الأمر قد سوي تماماً وأن الزواج سيتم في القريب العاجل.

هل كانت علاقتها مع عصام حقاً على مايرام؟ لم تشغلها تلك الجملة ذلك اليوم فقط، وخاصة بعد وقوفها أمام الباب الموصود بالحديد، إنما استحوذت على كل أيامها التالية، حتى أنها لم تخرج معه للصيد مرة أخرى، راحت تتحجج بأعذار جديدة، مما جعله يحذرها مرة أخرى من الرجوع إلى وضعها القديم.

من ناحية أخرى فهي وإن مرنت نفسها على نسيان صالح، واعتقدت أنها قد نسيته إلى الأبد، وحتى هو اعتاد على نسيانها، لا سيما بعد استلام نتيجة نجاحها إلى الصف السادس الإعدادي وانتقالها بهذه الصورة إلى مدينة العمارة، لعدم وجود الصف السادس في ثانويات النواحي، إلا أنها وجدت نفسها مجبرة على التفكير به من جديد. لقد حملتها هذه المرة أمها والتي حتى وقت قريب لم تعرف علاقة ابنتها بصالح.

ربما كانت أمها الوحيدة التي أبدت قلقها رغم غبطتها بخطبتها. لم تستطع نورية إخفاء شكوكها بما يجري، ولم يثنها «الجاه والوجه» الذي في حوزة بيت ماهود، كما كانت تعلق الناس، لم يثنها من التخوف بما ستنتهي

إليه الخطبة. لقد امتلكت هذه المرأة وجهاً خمسينياً دائرياً يخون بسهولة ما يدور برأسها. أن تجاعيدها عند جانبي الأنف والتي انحفرت وسط خديها المتوردين الأبيضين تفصحان عما يدور بخاطرها بسرعة. لقد هرمت نورية بسرعة، وغزا الشيب رأسها منذ دخولها الثلاثين، وكان يدهشها عناد ابنتها التي لاتدري من أين ورثه، عكسها هي التي تعودت الإذعان لأوامر زوجها مكتفية بالاحتفاظ باعتراضاتها وعدم رضاها وغضبها في الداخل، أمر جعلها تملك حساسية فائقة ربما أورثتها لابنها رعد الذي يعذبها اختفاؤه والذي أدخلها في صمت سري حزين.

في الحقيقة لم تعرف عن علاقة ابنتها بطريقة مباشرة، إنما خمنته بطريقة غير مباشرة عند زيارتها لماتزاد من أجل خياطة عباءة لها، حينها سألتها المرأة عن سبب انقطاع ماجدة عن زيارتها، فأجابتها بأنها مشغولة جداً، فيما احتفت في داخلها في استغرابها لتلك الزيارات المتكررة التي لم تعرف بها.

فضحكت العجوز، وأخبرتها كيف أنها كانت تأتي بحماس أثناء الدوام الرسمي. وعندما اتجهت إلى باب الدار لتغادر بيت ماتنراد، أوقفتها العجوز قائلة:

– سلمي لي على ماجدة، خبريها عصام ما ينفع لها هي الحبابة.

في تلك العصرية خرجت من بيت ماتنراد وهي على يقين بأن العجوز ليس لها مصلحة في الحديث عن ذلك لولا عدم وجود علاقة بين ماجدة وحفيدها صالح.

في صباح اليوم التالي لم تستطع ماجدة تحمل نظرات أمها المصوبة

باتجاهها بتساؤل. كانت قد جلست قبالتها منهمكة في فطورها الروتيني. فجأة دفعت بصينية الفطار، مصدرة آهة صغيرة:

- ماما ممكن تشرحين لي معنى هذه النظرات؟

وبسرعة أجابتها أمها:

- شوفي ماجدة، إني قلقة هواي من خطوبتك لعصام ماهود. أشك راح تكون نتيجة الزواج خير!

امتدت أصابع ماجدة إلى شعرها وراحت تصنع ثنيات صغيرة منه:

- ليش غيرت فكرتك. سابقاً كنت موافقة وتكولين بيت ماهود هم الجاه والوجه.

فأجابتها:

- ما أدري. كلبي يكول القضية تختلف هذه المرة.

سكتا لبرهة، ثم تابعت الأم.

- أنت ابنتي وأعرفك زين. تغيرك فيه معنى. أنت ما تسوين شيء بلاش.

شعرت ماجدة أن أمها قد جرحتها في المكان الذي حرصت كل هذه الأيام ألا تطأه. لقد أيقظت أمها السؤال القديم: ماذا تريد حقيقة. لا تدري. استحوذت عليها رغبة قوية بالعويل، الصراخ، بتمزيق ثيابها. لماذا لا يكفون عنها ويتركونها لحالها.

وبصوت واهن طلبت من أمها أن تكف عن السؤال.

لا حاجة لطلبها ذاك؛ فهي تعرف أن أمها لن تلح بعد في السؤال، ربما تكون قد حبست دمعة لم تشأ أن تراها ابنتها كم كان بودها، عندما رأت أمها تنهض وتحمل الصينية، أن تقف وتسحب أمها من طرف ثوبها، وتقول لها

«اجلسي» ولتضع رأسها في حضنها وتطلب منها إغلاق الباب والجلوس هناك لساعات، لأيام، بل لسنين. لبرهة جاءها صوت أمها وكأنه جاء همساً:

– شيكَول رعد لو عرف بالخطبة؟

أرادت أن ترد عليها بأنها تفعل ذلك من أجله، لكنها أغلقت فمها لشعورها بسخف ما تقول، بدل ذلك رددت مع نفسها «بالفعل شيكول؟» حينها سرت فيها رعشة خفيفة. خافت. وفي تلك اللحظة بالذات مر طيف صالح بها. جاء وعبر بسرعة مثل وميض نيزك، ليتحطم في زاوية من رأسها. نهضت من مكانها واتجهت إلى المطبخ. وقفت خلف أمها التي كانت منشغلة بترتيب الأواني:

– ماما، لا تغضبي مني.

استدارت أمها، دون أن تستطيع إخفاء الدمعة التي قفزت بسرعة من عينها إلى الأرض والتي تابعتها ماجدة لترى كيف أنها استقرت عند أقدامها بالذات، وبصوت مبحوح بعض الشيء قالت لها:

– يكفيني فقدان رعد، ما أريد فقدانك إنت همة.

فاحتضنتها قائلة:

– اطمئني.

وإذا ما انطفأ صالح في ذهنها ذلك الصباح، فإنما لفترة قصيرة، لأنه عاود ليسيطر على تفكيرها تماماً وبقوة منذ خروجها من البيت وحتى وصولها إلى دار السينما، إذ بعث بورقة صغيرة بيد إحدى صغيرات الحي، يخبرها فيها أنه الآن في انتظارها في بيت جدته. في تلك الأمسية كان عليها

حضور حفل افتتاح السينما التي تسلمها عصام ماهود رسمياً.

منذ زمن طويل كان عصام يخطط للاستيلاء على السينما. حاول في البداية وبطرق ديبلوماسية إقناع عبد الله ببيع السينما، لكنه اصطدم برفضه، أمر لم يتركه أن يذهب دون عقاب، لذلك لجأ إلى وسيلته التقليدية: القوة. هكذا اتفق مع مدير الأمن الجديد مزهر على تدبير خطة جديدة. لم تعز على مزهر رجل الأمن الخبير الحجج لتلفيق تهمة علاقة عبد الله بالشيوعيين، وجعل السينما كملجأ للذين ينزلون منهم من الشمال باتجاه الجنوب. هكذا اعتقل عبد الله وأخضعه للتعذيب. في نفس الوقت استحضر عصام أمراً من دار البلدية ينص على تحويل السينما إلى متنزه عام، مقابل أن تدفع البلدية مبلغاً بسيطاً كتعويض لعبد الله والذي أجبره مزهر على توقيع عقد البيع في الزنزانة. بهذه الطريقة رسمياً باع عبد الله دار السينما إلى البلدية، ليشتريها تباعاً عصام ماهود، بعد أن أشيع أن البلدية أعادت التفكير بخطتها.

لقد شاع خبر السينما في المدينة بسرعة، لاسيما وأنها مغلقة منذ سنتين. كان عصام يتوقع أن يفرح الخبر ماجدة، على العكس، فقد غضبت، وقالت له بصراحة، إن ما قام به ليس غير سطو شرعي، وأنها لن تسامحه عليه.

في تلك الليلة دُعي أهل الناحية إلى زيارة السينما مجاناً، فيما وافقت ماجدة على الحضور على مضض. لكنها عندما ذهبت ذلك المساء، كانت متعبة جداً وذكريات يوم مليل مازالت تطن في رأسها. ذلك اليوم امتلكت اليقين أيضاً أن ما من قوة في العالم تستطيع خلع صالح من رأسها. تخيلته مثلما دخل الصف للمرة الأولى، بوجهه غير الحليق ونظرته الحزينة، ومعطفه المتهدل، كانت الصورة من القرب بحيث أنها تخيلته وسط الحشد المتجمع

أمام الصالة. ترى ماذا ستفعل لو بزغ لها فجأة من بين الناس هناك ؟

– ماجدة تصعد للوج.

لقد أيقظها صوت عصام، فانتفضت محدقة به كأنها تراه للمرة الأولى. بدا لها غريباً جداً، يدعو للقرف مع الشلة المحيطة به كالعادة، مدير الشرطة، مدير المدرسة، مسؤول منظمة الحزب، حينها فكرت أنها لم تره خارجهم في حفل رسمي، دائماً هم أنفسهم. قرف. هل تدري النساء اللواتي رحن يتطلعن إليها بفضول وحسد أي قرف يتجمع في داخلها؟ هل تريد إحداهن أخذ موقعها، فلتتفضل؟ سمعت رنين جرس العرض، ولاتدري لماذا سألته عن اسم الفلم وهي تصعد الدرج، ربما كانت تبحث عن عزاء لنفسها.

أجابها بفخر:

– «بيوت في ذلك الزقاق» فلم وطني يتحدث عن نضال الخلايا الأولى للحزب.

قرف. لقد شعرت برغبة قوية في التقيؤ عندما سمعت اسم الفلم، هل هي محكومة بمطاردة الحزب لحياتها؟

جلسا في مكانهما. كان الفلم قد بدأ للتو، عندما سمعا ضرب أقدام تتوجه باتجاههما، مد عصام يده إلى المسدس الذي يحمله تحت السترة، وصاح:

– منو؟

جاءه الصوت:

– ملازم مزهر.

نهض عصام. سمعتهما يتهامسان، جاء إلى سمعها صوت مزهر في

الأول:

- منو غيرهم.

ثم سمعت عصام يصيح بشكل هستيري:

- مستحيل.

ثم يغادر اللوج بسرعة دون أن يقول لها كلمة. فجأة اشتعلت الأنوار وتوقف عرض الفلم. غادرت ماجدة اللوج. ومرت بغرفة ماكنة تشغيل الفلم، فلمحت بعجالة مشغل الماكنة غازي الأعور، يلبس أحد الأطفال لباسه، وهو يزرر بنطلونه بسرعة، متمتماً «خرب الله، هسة وكتها».

نزلت السلالم بسرعة. رأت تجمع الناس وتطلعهم إلى الجهة الأخرى من النهر. حينها عرفت بما يدور. كانت ذؤابات النيران تصعد إلى السماء من جهة دوشة الطيور، تضيئها فتذكرت «الليالي البيضاء». ولبرهة قصيرة تابعت كتل الدخان المحلقة فوق الناحية، لتشعر فجأة بيد تسحبها إلى جانب. حاولت التعرف على الرجل الملثم الذي وقف قريباً منها، خلف الحشد، لم تر غير ابتسامته:

- ماجدة. انسحبي قبل الأوان. طيري.

لم تستطع أن ترى سوى جزء صغير من وجهه الأسود. كانت شبه مذهولة وسط عياط الناس وصراخهم. رأته ينسحب شيئاً وشيئاً حتى ينتهي إلى زقاق فرعي فتبعته بهدوء. عندما رآها تسير خلفه بدأ بتحريك يديه كجناحين، مردداً صوتاً كان يصل سمعها:

- طيري، قبل ما تلتهم النيران الناحية كلها.

لم تعلق إنما كانت تسير خلفه فقط.

- طيري، مثل ما طار رعد وعوف.

فرحت عندما سمعت اسم رعد، فصاحت به وهي تلتفت حولها:

- تعرف وين رعد؟

ضحك:

- رعد يشعل النار بمناطق أخرى.

ثم أردف بسرعة:

- مع السلامة ماجدة.

رأته يختفي، خليل بونة، من ترى أين جاء هذه الليلة؟ من أشعل الفتيل في كميت؟ أيكون هو أم عوف أم رعد؟ لاتدري. وماذا يقصد بـ «طيري»؟ لقد سمعت رعد يقول لها ذات مرة: «السماء لمن يجيد الطيران والبحر لمن يجيد السباحة». وهي هل بإمكانها تعلم الاثنين.

لبرهة قصيرة وقفت، عاينت السماء، التي ترجرج سطحها مثل معدن ساخن، تلتمع تمنح الظلام لوناً فضياً، أهي بالفعل «الليالي البيضاء». فجأة اندفعت أقدامها باتجاه بيت ماتنراد. لم يكن الطريق طويلاً هذه المرة. لقد قطعته بسرعة.



مرة أخرى لم يكن بالإمكان تجنب رؤية المدرسة، إذ من مكانها في سيارة المرسيدس - الديزل كان بإمكانهما التطلع إلى قطعة الخشب التي أحاطها نيون قوي الإشعاع «ثانوية كميت المختلطة» وسواء خفف سرعة السيارة أم لا، فإنه سيمر بالمدرسة، لأنها تقع على الطريق الوحيد المؤدي إلى خارج الناحية. سارا بسرعة. هو جالس عند مقود السيارة وهي إلى جانبه. جلسا هادئين، فيما بسط الليل قماشه الأسود فوق الناحية، مكتسياً بالدخان

الذي بعثته ذؤابات النيران المشتعلة في الدوشة والتي بدأت في التضاؤل تدريجياً. هذه المرة لم تصل إليهما رائحة الياسمين الممتزجة برائحة النهر، أيضاً لم تحرك قميصها نسمة الهواء المنبعثة في الخارج والتي تحمل عادة خليطاً من روائح الجوري والرازقي، كلا لم تصاحبهما هذه الروائح، لأنهما أبقيا نوافذ السيارة مغلقة كي لا يستنشقا رائحة الدخان الكريهة، التي خنقت فضاء الناحية. ترى أين يتجهان؟ ليس هناك سوى طريق واحد يقودهما إلى خارج الناحية، وبعدها ليكن ما يكون، هذا ما فكرا به، بل هذا ما كانت تبوح به أعينهم التي برق فيها أسى خفيف. استمرا محافظين على صمتهما، كأنهما اتفقا على ذلك، حتى عندما قررا مغادرة الناحية، فعلا ذلك بسرعة وصمت عجيبين، هو خرج بسرعة إلى بيت كاظم ليطلب منه السيارة والذي أباح له قراره بالرحيل من كميت أيضاً، وعندما سأله كيف، أجابه لايقلق عليه، فإنه يتدبر وضعه. أما هي ظلت تنتظره في بيت جدته، دون الرغبة منها بإحضار بعض ملابسها. حتى ماتنراد حافظت هي الأخرى على صمتها، كأنها تعلن تضامنها معهما، أو تعلن شكها بما سيكون، لم تسأل إلى أين؟ هل تساءلا هما الآخران، إلى أين؟ لم يكن السؤال مهماً تلك الليلة. لقد قررا شيئاً واحداً، الخروج من كميت، وليكن بعدها التيه أو الجحيم، المهم عبور الطريق المؤدي إلى خارج الناحية التي يتركونها إلى عصام ماهود المنشغل بحريق دوشته والذي استنفر كل شرطته في البحث عن عوف وخليل وكاظم.

ولكن ليس هناك سوى طرق ثلاثة أمامهما: الأول يتجه إلى بغداد، الثاني إلى العمارة، والثالث إلى الجزيرة. هكذا خرجا تلك الليلة مولين ظهرهما إلى كميت مشتعلة، وهما على يقين أنهما سيحسمان اختيار الطريق عندما يصلان مفترق الطرق ذلك، لذا احتفظا بصمتهما بانتظار

المفاجأة التي سيتفوهان بها، فيما ازدادت دقات قلبهما مع اقترابهما من هناك. ولكن ما الذي يجعلهما ينخلعان من مكانهما فجأة، بحيث لايريان الدبابة التي جرت سرباً من الدبابات خلفها والتي سحقت سيارتهما، ملقية بها بعيداً، جعلتها تنقلب وتدور على قفاها عند مفترق الطرق دورات عديدة، كقرص الروليت، بل لم تريا الضابط الأشقر المربوع القامة، الذي ينزل من الدبابة وفي يده راديو ترانسيستور صغير، والذي بعد معاينة صغيرة للسيارة يصعد إلى دبابته، ويصعد معه صوت الراديو الذي صدح ببيانات الحرب الأولى، تاركاً إياها حيث جثمت في النهاية، كقبر عند طريق الخروج من مكان اسمه كميت.

هامبورج — مدريد

١٩٨٩ — ١٩٨٧

مطابع انترناشيونال برس ت : ٣٤٧٤٢٥٩

